



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة 8 ماي 1945 قالمة

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم التاريخ



الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في الدولة المملوكية خلال القرون
7-9هـ/13-15م

مذكرة تخرج لنيل شهادة الماستر تخصص تاريخ وحضارة المشرق الإسلامي

إشراف الأستاذ الدكتور:

كمال بن مارس

إعداد الطالبان:

بن طالب سهام

خليفة إيناس

الاسم واللقب	الرتبة	الصفة	الجامعة الأصلية
د/عطاوي سناء	أستاذ محاضر "أ"	رئيسا	جامعة 8 ماي 1945
د/ بن مارس كمال	أستاذ التعليم العالي	مشرفا ومقررا	جامعة 8 ماي 1945
د/يوسف أحلام	أستاذ محاضر "ب"	ممتحنا	جامعة 8 ماي 1945

السنة الجامعية: 1443هـ-1444هـ / 2022م-2023م



شكر و عرفان

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات
ثم نتقدم بجزيل شكرنا وخالص تقديرنا إلى أستاذنا
الفاضل الدكتور "بن مارس كمال" الذي شرفنا
مشرفا على رسالتنا هته فضلا عن أنه هون علينا الصعاب
وأمدنا من فيض علمه حتى ظهر هذا العمل للوجود
نسأل الله العلي القدير أن يديم عليه تمام الصحة والعافية وجزاه عنا كل خير
كما نشكر أعضاء لجنة المناقشة وذلك بالنظر إلى ما بذلوه
من جهد غير مقل في قراءة هذه الأوراق وعلى موافقتهم بنشرنا
في مناقشة هذه الرسالة والحكم عليها
وإبداء ملاحظاتهم الدقيقة وتوجيهاتهم المفيدة
كما نتقدم بشكرنا الجزيل إلى جميع أساتذة قسم التاريخ
تخصص مشرق إسلامي
الذين نهلنا من علمهم طوال مدة دراستنا.
كما أتقدم أنا الطالبة "بن طالب سهام" بوافر وبالغ الشكر
لمدير متوسطة "كحل الراس عبد المجيد" ببلدية رأس العقبة
السيد "خليفة محمد" لما أبدوه من تعاون وتقديم تسهيلات
للتوفيق بين العمل والدراسة جعل الله عملهم في ميزان حسناتهم.
يسرني أنا الطالبة "إيناس خليفة" أن أتقدم بأسمى عبارات الشكر
وأعطر كلمات التقدير إلى أعضاء أمانة متوسطة
أولاد ضياف مسعود مجاز - عمار -
على كل ما قدموه لي من دعم في فترة الدراسة.
كما نشكر كل من ساهم معنا في انجاز هذا العمل المتواضع
آملين من المولى عز وجل أن نكون مستحقين لما بذله الجميع
نحونا من جهد وعون ومساعدة
وراجين أن نكون قد وفقنا في هذه الدراسة
وأن يؤتي هذا الجهد المتواضع ثماره المرجوة

سهام-إيناس

إهداء

إلى والدتي العزيزة... إلى والدي الغالي...
إلى إخواني وأخواتي الأحباء
إلى زوجي العزيز...
إلى أولادي الأعمام، بنين، وبنين
إلى أمي الثانية وأبي الثاني حماي وحماي
إلى صديقاتي المقربات.

بن طالب ساهو



إهداء

الحمد لله ما تنهاها درجته ولا ختم جهده ولا تم سعيه إلا بفضل الحمد لله على البلوغ ثم الحمد لله على التمام
أما بعد:

إلى من لم تمهلها الدنيا لأرتوي من حنانها

إلى من بذلت جهده السنين في كرم،

وكانت من الأيام سلام للعلا لأرتقي بها في درج الحياة

إلى التي ما كانت لتبذل عليّ بعمرها لو أن العمر يهدى، إلى روح أمي وحمها الله.

إلى الحياة التي لا استغنى عنها أبداً، إلى جمال هذه الدنيا

إلى من ساندتني وخطت معي خطواتي ويسرت لي الصعاب

ووقوفني في هذا المكان ما كان ليحدث لولا تشجيعها، إلى أختي عواطف.

إلى من قاسماني حلو الحياة ومرها

إلى اللذان تكتمل بحضورهما فرحة التتويج

وتطيب بوجودهما ثمرة النجاح

إلى أخي أسامة وزوج أختي توفيق.

إلى أزهار عمري أبناء أختي

محمد، خديجة، أحمد عبد الرحيم حفظهم الله.

إلى من جمعني بما محمد الشبه طيب صدقتي إمام

أدامها الله لي وجعلها حبة الحياة والجنة.

إلى كل من علمني حرفاً "معلمي، أساتذتي الكرام"

إلى كل من قال لي لا فكان سبباً في تحفيزي.

إلى كل هؤلاء أهدي ثمرة جهدي.

إياداس خليفة.



مقدمة

مقدمة:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه ومن ولاه أما بعد:

أهمية الدراسة:

شهد المشرق الإسلامي في النصف الثاني من القرن السابع هجري/ الثالث عشر ميلادي قيام إحدى أكبر الدول الإسلامية ألا وهي دولة المماليك التي استطاعت بفضل قوتها أن تدوم قرابة ثلاثة قرون، ومن هنا جاءت هذه الدراسة بعنوان: الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في الدولة المملوكية خلال القرون 7-9هـ/13-15 م.

أسباب اختيار الموضوع:

- تسليط الضوء على الحياة الاقتصادية والاجتماعية في مصر وبلاد الشام للمماليك لأنها تحتاج إلى البحث لإعطاء صورة متكاملة عن هذه الدولة.
- دراسة الأوضاع الاقتصادية خاصة النشاط الزراعي، وسائله والإنتاج الزراعي والحيواني وكذلك الصناعة وأهم أنواعها، إلى جانب التجارة وطرقها وموانئها.
- الاطلاع على الأحوال الاجتماعية من حيث تركيب المجتمع والعادات والتقاليد من أعياد وملابس وأطعمة وكذا المرافق الاجتماعية.
- الإحاطة بأهم الأزمات التي تعرضت لها الدولة وموقفها من ذلك.

حدود الدراسة:

أ. الحدود المكانية: تمتد حدود الدراسة على كل من مصر وبلاد الشام والتي تمثل امتداد لدولة المماليك.

ب. الإطار الزمني: العصر الوسيط من القرن السابع هجري الموافق للثالث عشر ميلادي إلى القرن التاسع هجري الموافق للخامس عشر ميلادي، حيث تمتد على طول فترة عهد المماليك البحرية والبرجية.

الدراسات السابقة:

اعتمدنا في دراستنا على بعض الدراسات السابقة التي ساعدتنا في توضيح الرؤية وتوجيهنا في المسار الصحيح، ومن أبرزها رسالة الماجستير للباحثة نهى محمد حسين مكاحلة بعنوان الزراعة في بلاد الشام في العصر المملوكي والتي تناولت النظام الزراعي أساليبه وأدواته وكذا نوع الأراضي والمحاصيل الزراعية المنتجة، أما الدراسة الثانية من إعداد مبارك محمد سالم الطراونة بعنوان الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في عصر المماليك الجراكسة، إلى جانب دراسة ثالثة من إعداد منال أحمد ابراهيم أبو زيتون تتمحور حول المجاعات في مصر وبلاد الشام في العصر المملوكي حيث مكانتنا من التعرف على المجاعات وآثارها الاجتماعية والاقتصادية في الدولة المملوكية.

إلا أن موضوع دراستنا يشمل جوانب أخرى متعددة لم نتطرق لها هذه الدراسات، حيث جمع ما بين الجانب الاقتصادي والاجتماعي معا.

إشكالية الدراسة:

لدراسة الموضوع كان لابد من طرح جملة من الإشكاليات لعل أهمها بروز دولة المماليك كقوة كبرى صاحبه تطورات وتحولات على الأصعدة الاقتصادية والاجتماعية، فكيف كان ذلك؟ دفعتنا هذه الإشكالية لطرح مجموعة من التساؤلات الفرعية:

1. كيف كانت الأنشطة الاقتصادية الممارسة في الدولة المملوكية وبماذا تميزت؟
2. ماذا ميز المجتمع المملوكي في تركيبه الاجتماعي وعاداته وتقاليده؟
3. ما هي أبرز الأزمات التي تعرضت لها الدولة المملوكية وما موقفها من ذلك؟

خطة الدراسة:

وقد جاءت الدراسة في ثلاثة فصول وخاتمة ومقدمة.

كان الفصل الأول بعنوان: النشاط الاقتصادي المملوكي والذي ضم ثلاثة مباحث في مقدمتها الزراعة من أنواع الأراضي الزراعية وطرق الري وأساليبه إضافة إلى الإنتاج الزراعي والحيواني، ليليه المبحث الثاني حول الحرف والصنائع من الصناعة النسيجية، صناعة السكر، الحرير، والزيوت، ثم تناولنا الحركة التجارية بشقيها الداخلي والخارجي من أسواق وطرق تجارية وغيرها.

خصص الفصل الثاني بعنوان: الحياة الاجتماعية في العصر المملوكي للحديث عن الحياة الاجتماعية المملوكية وقد انقسم إلى أربعة مباحث تمحور الأول منها حول مكونات المجتمع، أما الثاني فتطرقنا فيه إلى الأعياد والمناسبات الدينية والقومية التي احتفل بها المماليك بمختلف طبقاتهم، ثم تناولنا في المبحث الثالث الألبسة والأطعمة التي راجت في ذلك العصر، وأخيرا تناول المبحث الرابع المرافق الاجتماعية التي شيدت.

تناول الفصل الثالث والأخير: الأزمات في الدولة المملوكية وتأثيرها على الوضع الاقتصادي والاجتماعي حيث قسم إلى ثلاثة مباحث، الأول منها تحدث عن أهم الأزمات والكوارث التي حلت بالدولة لمملوكية من طبيعية وفساد نظام الحكم والثورات الداخلية، أما الثاني فتطرق إلى انعكاساتها على الجانبين الاقتصادي والاجتماعي، والثالث تناول موقف الدولة من هذه المشاكل والأزمات وختمنا دراستنا بمجموعة من الاستنتاجات العامة حول الموضوع.

منهج الدراسة:

اتبعنا المنهج التاريخي الوصفي من خلال جمع المعلومات من المصادر والمراجع إضافة إلى المنهج التحليلي والإحصائي من خلال ترتيب المعطيات وتحليلها.

صعوبات الدراسة:

واجهتنا مجموعة من الصعوبات خلال بحثنا أهمها ما يلي:

- قلة المصادر والمراجع المتخصصة في الجانب الاجتماعي لدولة المماليك.
- أغلب المعلومات المتوفرة تخص الحياة في مصر خلال العصر المملوكي وندرته بالنسبة لبلاد الشام وصعوبة لغة المصادر التي تحتاج لوقت للإطلاع عليها.

عرض المصادر والمراجع:

اعتمدنا في دراستنا على مجموعة من المصادر والمراجع المتخصصة والتي تنوعت ما بين كتب التراجم والحواليات وكتب الجغرافيا:

1. مصادر المعاصرين لفترة الدراسة:

أ. كتب الرحلة والجغرافيا:

- **معجم البلدان:** لشهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (ت626هـ/1229م)، ويعتبر هذا الكتاب من المصادر المهمة لما يقدمه من معلومات خاصة بالمدن والقرى وغيرها من الأماكن مما ساعدنا على ربط الأحداث التاريخية بجغرافيتها وتوضيح الصورة.
- **تقويم البلدان:** لعماد الدين إسماعيل بن السلطان الأفضل نور الدين المعروف بأبي الفداء صاحب حماه (ت732هـ/1331م)، ويحتوي هذا الكتاب على معلومات مفيدة عن بلاد الشام ومدنها وقراها ويورد عنها معلومات اجتماعية.
- **تحف النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار:** لأبي عبد الله محمد بن عبد الله ابن إبراهيم اللواتي المعروف بابن بطوطة (ت779هـ/1377م)، أثناء رحلته زار بعض المدن والقرى المصرية والشامية وذكر أخبارها ووصف جغرافيتها إلى جانب ذكر معلومات عن الجانب الاجتماعي من وصف المنشآت العمرانية والاحتفالات التي كانت تقام.

ب. كتب التاريخ العام:

- **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء:** لشهاب الدين بن أبي العباس بن علي القلقشندي (ت821هـ/1418م) تولى منصب الإنشاء في مصر فذكر كل ما يتعلق بها في العصر المملوكي من القبائل القاطنة بها ووصف الوسائل والمنشآت المصرية والأعياد والمناسبات وغيرها من الأمور التي تناولها البحث.

- **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار:** لتقي الدين أبو العباس أحمد بن علي الشافعي المقرئ في (ت: 845هـ/1441م) خاص بمصر تناول فيه الآثار والخطط مع ذكر الأحداث المختلفة في المجتمع ووصفه للأعياد والمناسبات.
 - ج. **الحوليات:**
 - **تاريخ ابن قاضي شهبه:** لتقي الدين أبي بكر أحمد بن عمر الأسدي الدمشقي (ت: 851هـ/1449م) هو مختصر من تاريخه الكبير الذي ذيل به على من تقدمه من مؤرخي الشام (الذهبي، ابن كثير...) يحتوي الكتاب على معلومات عن المماليك الجراكسة وذكر أخبار عن بلاد الشام من أوضاع أهل الذمة واليهود والنصارى.
 - **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة:** لأبي المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي (ت: 874هـ/1469م) عاصر الدولة المملوكية ولهذا توصف مادته بالكثرة والشمولية للجوانب الاقتصادية والاجتماعية.
 - **بدائع الزهور في وقائع الدهور:** لمحمد ابن إياس الجركسي (ت: 930هـ/1524م) خصص كتابه لتاريخ مصر حيث أعطى معلومات عن أمراء المماليك ومعاملاتهم وكذلك ذكر معلومات عن الاحتفالات والثورات والكوارث التي تعرض لها المماليك.
 - د. **كتب التراجم:**
 - **الوافي بالوفيات:** لصلاح الدين بن أبيك الصفدي (ت: 764هـ/1363م) يعتبر هذا الكتاب أكبر موسوعة للأعلام وقد أفادنا بمعلومات عن علماء وأمرء وفقهاء دمشق.
 - **المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي:** لأبي المحاسن جمال الدين بن تغري بردي (ت: 874هـ/1469م) ساعدنا على ترجمة الأعيان والبارزين من سلاطين الدولة المملوكية الأولى والثانية.
2. **المراجع العربية والمعربة:**

- **عصر سلاطين المماليك:** لقاسم عبده قاسم وبرزت أهمية هذا الكتاب في تسليط الضوء على الجانب الاجتماعي من الأقليات الدينية والاحتفالات والمناسبات إضافة إلى الحرف المتصلة بالحياة اليومية والأزمات الاقتصادية.
- **الدولة المملوكية** "التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري": لأنطوان خليل ضومط ساعدنا في معرفة مقومات الاقتصاد المملوكي من صناعة وتجارة.
- **المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك:** لسعيد عبد الفتاح عاشور، حيث قدم لنا معلومات عن بناء المجتمع المصري والحياة العامة من أسواق ومنشآت اجتماعية وعادات وتقاليد من ألبسة وأطعمة.
- **التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الاوسط في العصور الوسطى:** لأشتور إذ قدم لنا هذا الكتاب معلومات عن أحوال الدولة المملوكية وسياسة سلاطينها مع تشخيص الكوارث والأزمات التي تعرضت لها وآثارها.
- **الملابس المملوكية:** لماير ساعدنا في إعطاء صورة عن طبيعة الألبسة والأزياء التي شاع استعمالها في العصر المملوكي.

المدخل: نبذة تاريخية عن الدولة المملوكية

مدخل:

يطلق اسم المماليك على الرقيق البيض من الأجناس المختلفة من ترك ومغول وصقالبة وجركس وغيرهم¹، شاع بيعهم في أسواق النخاسة لتعرضهم للخطف أو الأسر نتيجة الحروب أو قد يبيع الأهالي أبنائهم لانتشار الغلاء والوباء.²

اعتمد حكام الشرق الأدنى الإسلامي خاصة في مصر وبلاد الشام منذ العصور العباسية المتأخرة على جلب أعداد ضخمة من الرقيق واستخدموهم كجند أو ما شابه ذلك لتدعيم نفوذهم مما عزز مكانتهم في الكثير من البلاد الإسلامية، وكان أمراء بني أيوب بوجه خاص يعتمدون عليهم في صراعاتهم الداخلية خاصة في القرن 7هـ/13م.³

كان الأيوبيون في بلاد الشام ومصر يشتررون المماليك صغاراً ويربونهم ويعلمونهم العربية قراءة وكتابة والدين الإسلامي، وبعد البلوغ يعلمونهم فنون القتال والفروسية حتى يصلوا إلى مستويات عالية من المهارة القتالية والقوة البدنية، ثم يدربون على أمور القيادة والإدارة الحربية ويتدرجون في الرتب حتى يصبحوا أمراء.⁴

يعتبر السلطان الصالح نجم الدين أيوب (637-647هـ/1246-1249م) المسؤول عن ازدياد نفوذ المماليك ومن ثم وصولهم للحكم، فبعد تعرضه للمؤامرات وتفريق الأمراء والجند من حوله من المرتزقة من خوارزمية وأكراد ساعده مماليكه في حربه ضد باقي الحكام الأيوبيين، ما دفعه لإنشاء فرقة من مماليك البحرية.⁵

برزت أهمية المماليك في الدفاع عن العالم الإسلامي بعد هزيمتهم للصليبيين في الحملة الصليبية السابعة على مصر بقيادة لويس التاسع (647هـ/1249م) مما زاد نفوذ المماليك في الدولة

1 قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، دار شروق، القاهرة، 1415هـ/1994م، ص 7.

2 محمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، دار النفائس، بيروت، 1418هـ/1997م، ص 15.

3 مفيد الزيدي، موسوعة التاريخ الإسلامي "العصر المملوكي"، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، 2009، ص 20.

4 المقريري، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تح: محمد زينهم ومديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1998، ج3، ص 65، 66.

5 المقريري، السلوك لمعرفة دول الملوك، تح: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418هـ/1997م، ج1، ص

ومن ثم سيطرتهم على الحكم بعد قتل توران شاه بن الصالح أيوب بتحريض من شجر الدر زوجة أبيه التي تولت مكانه، وبذلك ظهرت دولة المماليك في منتصف القرن 7هـ/ 13م سنة 648هـ/1250م.¹

تأسست أول دولة للمماليك وعرفت بالبحرية² (648-784هـ/1250-1382م) من قبل ممالك السلطان الصالح نجم الدين أيوب، تداول على عرشها 24 سلطانا تلتها دولة المماليك البرجية³ والجراكسة لأن أصلهم من العنصر الشركسي (784-923هـ/1382-1517م) وكان أول سلاطينها الظاهر سيف الدين برقوق، وبذلك فرض المماليك أنفسهم على تاريخ مصر وبلاد الشام قرابة ثلاثة قرون.

¹ قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص 8.
² المماليك البحرية: سميت نسبة إلى بحر النيل الذي أحاط بثكناتهم في جزيرة الروضة، ويرجح رأي آخر في نسبة هذه التسمية إلى الطريق البحري الذي كان يعتمد عليه التجار في جلبهم عبر البحار من بلاد القوقاز وآسيا الصغرى وشواطئ البحر الأسود إلى مصر حتى الإسكندرية ودمياط. أنظر: سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 2.
³ المماليك البرجية: سمو بالبرجية نسبة إلى الأبراج التي يسكنونها في قلعة الجبل أنظر: وليم موير، تاريخ دولة المماليك في مصر، تر: محمود عابدين وسليم حسن، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1415هـ/1995م، ص 39.

الفصل الأول
النشاط الاقتصادي المملوكي

المبحث الأول: الزراعة.

(1) أنواع الأراضي الزراعية:

تعتبر الزراعة الحرفة الأولى في الدول المملوكية في كل من مصر وبلاد الشام، إذ تعتمد عليها في الاقتصاد مما جعل السلاطين المماليك أكثر اهتماماً بها، وكانت توزع الأراضي الزراعية في شكل إقطاعات¹ تمنح للأمرء والجنود ويخصص جزء منها للسلطان، وذلك بعد تقسيمها إلى أربعة وعشرين قيراط² يأخذ السلطان أربعة قراريط والأمرء عشرة وما تبقى منها للجنود.³

ابتداء من سنة ستمائة وسبع وتسعين أقر السلطان الملك المنصور لاجين (696-698هـ-1296-1298م) الروك⁴ بعد ملاحظته لأخذ الأمرء لإقطاعات الجنود دون دفع الضرائب، لذلك ندب الأمير بدر الدين بيليك الفارسي الحاجب والأمير بهاء الدين قراقوش الظاهري وجماعة من الكتاب على رأسهم تاج الدين عبد الرحمن الطويل مستوفى الدولة لروك الأراضي، حيث قاموا بتعديل وفك زمام الأراضي وتوزيع الوثائق الخاصة بحدود الإقطاعات على أصحابها.⁵

تعرض توزيع الأراضي في مصر وبلاد الشام إلى التغيير مما جعل السلطان الناصر محمد بن قلاوون (698-708هـ/ 1298-1308م) يلجأ إلى الروك الثاني بسبب استنكاره من إقطاعات المماليك من أصحاب الأمير بيبرس الجاشنكير والمماليك البرجية.⁶

¹ الإقطاع: ما يعطى من أراضي زراعية للأمرء والجنود وغيرهم لاستغلالها ودفع الخراج عنها. انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، 1949، ج8، ص 90.

² قيراط: يستعمل لقياس الأوزان يساوي 0.195 غرام في مصر وبلاد الشام. انظر: فالترهنتس، المكايل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، تر: كامل العسلي، روائع مجدلاوي، ط2، الأردن، 2001، ص 44.

³ القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1340هـ/1922م، ج3، ص 432.

⁴ الروك: كلمة قبطية اصطلح على استعمالها للقيام بعملية قياس الأرض وحصرها في سجلات وتأمينها لتقدير الخراج عليها ويقولون راک البلاد ويروكها، ويقابل الروك في الوقت الحاضر عملياً فك الزمام وتعديل الضرائب. انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج8، ص 90.

⁵ المقرئزي، السلوك، ج2، ص 290.

⁶ محمد جمال الدين سرور، دولة بني قلاوون في مصر، دار الفكر العربي، مصر، 1366هـ/1947م، ص 289.

كما قسمت الأراضي الزراعية إلى أقسام استنادا إلى نوع المحصول الذي زرع فيها، وهي الباق، ري الشراقي، البروبية، البقماهة، الشتونية، شق الشمس، البرش النقاء، الوسخ المزدرع، الوسخ الغالب، الخرس، الشراقي، المستبحر، السباخ.¹

تعتبر أرض الباق أعلى الأنواع رتبة من حيث الجودة ويلبها الشراقي وهي التي كانت محرومة من الري ثم رويت وزرعت وأنجبت زرعها لاستراحتها مدة من غير زرع، أما إذا كانت رويت ثم بارت فتعطلت من الزرع فاستراحت أنجب زرعها بعد ذلك وتسمى السلايح ثم البرايب وتكون على أثر زراعة القمح والشعير، فضعت فلا تصلح بعد هذين الصنفين إلا لزراعة القرط²، أما السقماهة فهي التي تلي زراعة الكتان ولا تزرع قمحا، والشتونية هي التي رويت وبارت في السنة الماضية ثم زرعت، وأرض النقاء هي النقية مما يعوقها من الزرع³، والوسخ المزدرع هي الأرض التي لم يستحکم وسخها ولم يقدر المزارعون على استكمال إزالته منها فحراثوها وزرعوها وطلع زرعها مختلط بوسخها، أما الوسخ الغالب هي كل أرض بقيت فيها مخلفات نباتات سابقة فبقيت دون زراعة وتباع كمراعي للبهائم، ثم الشراقي وهي الأراضي التي لم تصل إليها مياه النيل، والمستبحر وهي أرض واطئة إذا حصل الماء فيها لا يجد مصرفا له عنها فيمضي زمن المزارعة قبل زواله، وأخيرا السباخ وهي الأرض التي غلب عليها الملح وتعذر زراعتها بالحبوب وهي من أردى أنواع الأراضي وقد يزرع فيها الباذنجان والقصب الفارسي.⁴

(2) نظام الري:

اتساع رقعة الدولة المملوكية في مصر وبلاد الشام نتج عنه التنوع في نظام الري ووسائله، فنجد في مصر اهتمام السلاطين بإقامة الجسور الحابسة للمياه وهي نوعين: سلطانية وبلدية، فالجسور السلطانية تعمرها الدولة في كل سنة على نفقة الديوان بالوجهين القبلي والبحري، ولها جراريف يجرف

¹ الفلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص 450-452.

² القرط: غذاء الدواب يزرع إذا ما أخذ النيل في النقصان. أنظر: محمد جمال الدين سرور، الظاهر ببيرس وحضارة مصر في عصره، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1938م، ص 146.

³ إبراهيم علي طرخان، النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، دار الكتاب العربي، 1388هـ/1928م، ص 236.

⁴ المقرئزي، الخطط، ج1، ص 289، 290.

بها التراب لإقامة الجسور ومحاريث وأبقار، وقد عين لعمارة الجسور ما يعرف بكاشف الجسور يساعده مهندسين وعمال في ذلك.¹

النوع الثاني وهو الجسور البلدية التي يخص نفعها ناحية دون أخرى، ويتولى إقامتها المقطعون والفلاحون من مال الناحية،² وقد أهمل الاهتمام بأمرها واقتصر في عمارة الجسور السلطانية.³

إضافة إلى وجود جسور كانت تنشأ لضرورة طارئة لمواجهة خطر أو تحويل مجرى مياه النهر نحو الساحل، وكان السلطان في الكثير من الأحيان يشرف بنفسه على سير العمل ومن أمثلة ذلك: السلطان الناصر محمد بن قلاوون الذي أشرف بنفسه على سير عمل الجسور سنة 738هـ/1337م، كما سار السلطان الناصر محمد بن قلاوون لبناء جسر شبين في مصر سنة 737هـ/1336م.⁴

إلى جانب الجسور نجد الترعة والخلجان التي تفتح ليخترق الماء الأرض البعيدة عنه، من أشهرها خليج منف، خليج الإسكندرية، خليج أبي المنجا، الخليج الناصري⁵، وتتولى الدولة الإشراف عليها من حيث الإنشاء والصيانة ومن ذلك ما حدث في عهد السلطان جقمق (842-856هـ/1442-1451م)⁶ إذ أشرف الأمير زين الدين الأستادار سنة 854هـ/1450م على حفر بحر المنزلة لأنه سد بالرمال، كما حظت القناطر بالاهتمام مثل ما فعله قايتباي (872-901هـ/1467-1496م) سنة 896هـ/1490م حين أمر أحد أمرائه بالتوجه لنواحي الجيزة لعمارة القناطر بها وبلغت نفقة ذلك نحو 5 آلاف دينار⁷ واستخدم مقياس⁸ على النيل لمراقبة زيادة ونقصان مياهه والتحكم في موعد فتح المياه إلى الأراضي الزراعية.⁹

1 ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، صححه: بولس راوسي، المطبعة الجمهورية، باريس، 1894م، ص 129.

2 ابن مماتي، قوانين الدواوين، تح: عزيز سوريال عطية، مصر، 1943م، ص 232.

3 القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص 449.

4 قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، القاهرة، 1978م، ص 27.

5 المقرئزي، الخطط، ج1، ص 202.

6 طرخان، المرجع سابق، ص 246.

7 نفسه، ص 462.

8 المقاييس: عمود رخام أبيض مثنى يوضع في موضع ينحصر فيه الماء، وهذا العمود مفصل إلى اثنين وعشرين ذراع وكل ذراع مقسم إلى أربعة وعشرين قسما متساويا تعرف بالأصابع ماعدا الإثنين عشرة ذرعا الأولى فإنها مفصلة على ثمان وعشرين أصبعا. أنظر: المقرئزي، الخطط، ج1، ص 174.

9 حسام محمد الناظر، دولة المماليك في عهد السلطان الظاهر برفوق، مكتبة الجامعة الأردنية، 1998م، ص 210.

استعمل المماليك الري الحياض فقسما الأراضي إلى أحواض صغيرة وكبيرة تحدد بواسطة الجسور المتصلة بالتلال المجاورة لها وتصل إليها المياه بواسطة القنوات، وتوجد في نهاية الأحواض مصارف تفتح عند الحاجة للتخلص من المياه الزائدة أو التخفيف من حدة ضغط فيضان النيل عند الزيادة.¹

بينما كانت الزراعة في بلاد الشام تعتمد في الأغلب على الأمطار في كثير من المناطق كالجبال الغربية مثل فلسطين² ومن تلك الأمطار المطر الموسمي الذي يقع في فصل الخريف ويتم خلاله بذر البذور ثم يحرق وتتساقط عليه الأمطار التي تسمى الفاطم، وعلى الأغلب تسقط في شهر أبريل لينتكمال نماء الزرع.³

من أراضي الشام ما يسقى بمياه الأنهار والعيون⁴ إضافة إلى الاعتماد على الترغ والخلجان والسواقي في بعض المناطق.⁵

عرفت بلاد الشام استخدام الآلات والأدوات الزراعية كالناعورة⁶ التي اشتهرت بها مدينة حماة منذ القدم حيث توجد على جانبي نهر العاصي، تستغل لسقاية البساتين وغيرها⁷ إضافة إلى استخدام الدالية التي تعمل بنفس مبدأ الناعورة، فالدالية تدار بواسطة ثور أو حصان بينما تدار الأولى بقوة دفع الماء.⁸

1 عامر نجيب موسى الناصر، الحياة الاقتصادية في مصر في العصر المملوكي، دار الشروق، الأردن، 2003، ص 177.

2 نهى مكاحلة، الزراعة في بلاد الشام في العصر المملوكي، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، قسم التاريخ، كلية الأدب، جامعة اليرموك، 1992، ص 117.

3 النويري، نهاية الإرب في فنون الأدب، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1350هـ/1931م، ج8، ص 255.

4 نفسه، ج8، ص 257.

5 ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج8، ص 210.

6 الناعورة: هي آلة ذات دولاب رأسي كبير القطر مجهزة بمجاديف وبدلاء موزعة على محيطه تدور بقوة تيار النهر، تعمل على رفع الماء إلى مستوى أعلى ويعود الفضل للعرب في تطويرها ونشر استعمالها. أنظر: أحمد يوسف الحسن، تقي الدين والهندسة الميكانيكية العربية مع كتاب الطرق السنوية في الآلات الروحانية، حلب، 1976، ص 51.

7 ابن الشحنة، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تق: عبد الله محمد الدرويش، دار الكتاب العربي، سوريا، 1404هـ/1984م، ص 206.

8 نهى مكاحلة، المرجع السابق، ص 123.

إضافة إلى استخدام الدولاب على نهر يزيد¹ الذي تديره هو الآخر البهائم² ومن آلات الري المستخدمة في بلاد الشام في العصر المملوكي الشاذروان³ على نهر بردي غربي دمشق.

استعملت القنوات لتسهيل ري الأراضي الزراعية خاصة في الأماكن المنحدرة لإيصال الماء كقناة حيلان التي تنسب إلى قرية حيلان البعيدة عن حلب بحوالي ثمانية أميال⁴.

(3) الإنتاج الزراعي والحيواني:

ظلت طرق الزراعة كما كانت عليه في العصور السابقة، فكانت الدورة الزراعية الواحدة في مصر خلال السنة، أي أن الأرض تزرع مرة واحدة في السنة، أما في بلاد الشام يراح شطر ويزرع شطر ثم يبذل الشطران في السنة الموالية⁵، وهو ما يعرف عند الرومان بنظام الحلقتين تجنباً لإجهاد الأرض وتحسين الإنتاج⁶.

تعدد الإنتاج الزراعي في الدولة المملوكية في كل من مصر والشام من حبوب وكتان وقصب السكر إلى جانب أنواع كثيرة من الفواكه والخضروات، أما فواكهها من الكمثري والخوخ والتين واللوز والمشمش والنبق، ومن خضرها القثاء والخيار والقرع والبادنجان والجزر والثوم⁷، كما اهتم المماليك بزراعة النباتات العطرية من أزهار ورياحين مثل الورد والبنفسج والياسمين والآس⁸.

¹ نهر يزيد: أعلى فروع نهر بردي في دمشق نسب إلى يزيد بن معاوية الذي جدده وزاده. أنظر: يوسف الحسن، المرجع السابق، ص 58.

² البديري، نزهة الأنام في محاسن الشام، دار الرائد العربي، بيروت، 1980، ص 111.

³ الشاذروان: آلة لفصل مياه الأنهار عند التحويل وهي ألواح خشبية متينة يوضع خلفها أعمدة لتثبيتها فيرتفع مستوى مياه النهر لتسقى الأماكن المرتفعة. أنظر: محمد أحمد دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر، دمشق، 1410/1990م، ص 95.

⁴ تسنيم كوبري وعدنان ملحم، الزراعة في نيابة حلب في العصر المملوكي (648-922هـ/1250-1516م)، مجلة جامعة النجاح للأبحاث قسم العلوم الإنسانية، نابلس، المجلد 37، 2023، ص 715.

⁵ النويري، المصدر السابق، ج 8، ص 257.

⁶ طرخان، المرجع السابق، ص 242.

⁷ السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، مصر، 1387/1968م، ج 2، ص 438-445.

⁸ نفسه، ج 2، ص 461-417.

سادت زراعة الحبوب خاصة القمح على النيل والسواقي والدواليب حيث يكثر في بلاد الصعيد ويزرع في الفيوم دون حلول زمن النيل¹ وأصبحت غلة فدان² القمح يتراوح من إردبين³ إلى عشرين، كما كان يزرع أيضا الفول ويتراوح من عشرين إلى ما دون ذلك وفدان الحمص من أربعة أرداب إلى عشرة وفدان العدس من عشرين أردب إلى ما دونها، وفدان السمسم ما بين أردب إلى ستة أرداب، أما القطن فمتوسط إنتاج الفدان منه ثمانية قناطير.⁴

يعتبر القمح من أهم المحاصيل الزراعية الاستراتيجية في بلاد الشام إلى جانب الشعير، تنتشر زراعته في نيابة صغد، نابلس، الخليل، عمان، الكرك، رملة وعلجون،⁵ وتمثل مصر مخزن القمح لبلاد الشام والحجاز والنوبة عند حصول نقص في الإنتاج.⁶

أما زراعة الأرز اختصت بالطبقة الغنية في القاهرة ودمشق بسبب ارتفاع سعره وتكاليفه، حيث تنتشر زراعته في دمياط والمنزلة ورشيد والفيوم، بينما زراعته قليلة في بلاد الشام اقتصرت على بعض المناطق مثل صور وغور الأردن.⁷

عرفت زراعة قصب السكر ازدهارا في كل من مصر وبلاد الشام لتوفر مقومات إنتاجه من مناخ، تربة ومياه كونه مصدرا أساسيا في الصناعات، فكانت زراعته كثيفة في كل من الإسكندرية، الفسطاط والقاهرة وكذا السواحل الشامية ومنطقة طرابلس وبانياس وصور وأريحا.⁸

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص 312.

² فدان: وحدة مساحة تستخدم في مصر وهو نظام غير متري ويساوي الفدان الواحد 4200.83 متر مربع. أنظر: فالتر هنتس، المرجع السابق، ص 97، 98.

³ إردب: مكيال مصري للحنطة ويساوي 29.6 كغ من القمح أو 56 كغ من الشعير. أنظر: فقلتر هنتس، المرجع السابق، ص 58.

⁴ محمد جمال الدين سرور، دولة بني قلاوون، ص 293.

⁵ طه حسن الزعاري، الصناعات والحرف في جنوب بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي (569-923هـ/1173-1517م)، وزارة الثقافة الأردنية، 2021، ص 69.

⁶ سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، دار النهضة العربية، ط2، القاهرة، 1976، ص 287.

⁷ مصطفى غازي مصطفى بدور، التاريخ الاقتصادي للدولة المملوكية (648-923هـ/1250-1517م) أطروحة دكتوراه، قسم الاقتصاد والمصارف الإسلامية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة اليرموك، الأردن، 2016/2015، ص 97.

⁸ مصطفى غازي مصطفى بدور، المرجع السابق، ص 103.

انتشرت زراعة الزيتون في أغلب القرى والمدن الشامية لتوفر البيئة المناسبة مثل صفا، طبرية ونابلس وبيت المقدس وعلجون والكرك والخليل،¹ بينما قلت زراعته في مصر ولا يستفاد منه في استخراج الزيت بل يؤكل أخضر.²

إلى جانب المحاصيل الزراعية اهتم المماليك بالثروة الحيوانية وأكثرها من تربية الإبل والأبقار والأغنام والخيول، وفي هذا الإطار قام السلطان الناصر محمد بن قلاوون (698-708هـ/1298-1308م) ببناء حظيرة بجوار قلعة الجبل وجعل فيها بيوتا للدواجن والمواشي وعدد كبير من البقر كما كان يبعث في طلب الأغنام من بلاد النوبة واليمن.³

¹ الزعاري، المرجع السابق، ص 75.

² القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص 313.

³ محمد ربحان، الإدارة المالية في عصر دولة المماليك، رسالة لنيل الماجستير في تاريخ العرب والإسلام، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، دمشق، 2016/2017، ص 40.

المبحث الثاني: الحرف والصنائع.

كانت الصناعة رافدا من روافد الاقتصاد في العصر المملوكي، وكانت شريحة الصناع في المرتبة الثانية من حيث العدد بعد شريحة المزارعين¹، وكانت لمصر والشام شهرة عظيمة في كثير من الصناعات والحرف في العصر المملوكي مما جعل التنافس بين الصناع شديدا، وقد هاجر الكثير من صناع العراق إلى مصر في منتصف القرن السابع هجري/ الثالث عشر ميلادي، وهذا ما أدى إلى شدة التنافس بين الصناع.²

أطلقت عده تسميات على أهل الحرف وأربابها منها: "الأصناف" أو "أصحاب المهن" و"أهل الصنائع" وأطلق عليهم أيضا مسمى "المتسبون" و"أهل المهن" و"الطوائف"؛ وكانت العلاقة بين افراد كل حرفة أو طائفة قوية ومتينة، فهم أكثر ترابطا وتعاوننا فيما بينهم ويكرم بعضهم بعضا بدافع ذلك الرابط³ وإذا ما حدث وأنتج أحد الصناع عملا جميلا ما هرا لم يرى مثيلا له من قبل كان يرتدي رداء من الحرير ويطاف به بين الحوانيت يصحبه الموسيقيون فيما هو أشبه بموكب النصر ويعطيه كل شخص بعض المال.⁴

خضع الصناع وأصحاب الحرف في العصر المملوكي في مصر والشام لنظام النقابات، فكان أفراد كل حرفة يكونون نقابة خاصة بهم لها نظام ثابت يحدد عددهم ومعاملاتهم فيما بينهم وبين الأهالي⁵ كما يكون لهم شيخ أو رئيس يرجعون إليه لحل مشكلاتهم وهمومهم، أما عن انتساب الأفراد للنقابة فلا يوافق على أحد إلا إذا كان من أهل الصنعة متوارثا عن أبيه ولا يسمح هؤلاء أن يحل أحد محل الآخر إلا إذا وافق على الشروط الخاصة لهذه الجماعة أو النقابة.⁶

- من بين الصناعات التي انتشرت في العصر المملوكي بمصر والشام ما يأتي:

¹ نبيل خالد أبو علي، الأدب العربي بين العصرين (المملوكي والعثماني)، الجامعة الإسلامية، غزة، 2007، ج1، ص 22.

² محمود إبراهيم حسن، الخزف الإسلامي في مصر، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، مصر، 2010، ص 79.

³ قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص139.

⁴ المقرئزي، الخطط، ج2، ص 105.

⁵ محمود محمد الحويري، مصر في العصور الوسطى من العصر المسيحي حتى الفتح العثماني، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، 2002، ص292.

⁶ مفيد الزبيدي، المرجع السابق، ص 232.

1. صناعة المنسوجات:

في هذا العصر ارتقت صناعة المنسوجات وأصبحت على درجة كبيرة من الجودة والإتقان، ومن أهم الصناعات صناعة المنسوجات من الحرير والصوف والكتان والقطن، وامتازت بروعة نقوشها وزخارفها ويشهد على ذلك قطع النسيج المتبقات من ذلك العصر.¹

ففي مصر انتشرت صناعة المنسوجات في العصر المملوكي في أقاليمها وقراها بصورة كبيرة، ولعل أهم هذه المناطق منخفض الفيوم² وبلاد الوجه القبلي نظرا لزراعة الكتان هناك بكميات كبيرة³، ومن المنسوجات المصرية المصنوعة من الكتان في القرن 7هـ / 13م قطعة محفوظة في دار الآثار العربية بالقاهرة.⁴

أما المنسوجات والملابس الصوفية فقد تمتعت بلاد الوجه القبلي بالصدارة في صناعتها، وقد كان للنساء دور في هذه الصناعة كما عرف كل من يقوم بعملية الغزل والنسيج باسم الحائك في كتب الحسبة.⁵

ذكر الرحالة ابن بطوطة⁶ مدينة البهنسا⁷ باشتهارها في صنع ثياب الصوف الجيدة وأبدع ما نعرفه من المنتجات في مصر والشام المنتوجات الحريرية وما يدل على ذلك مجموعة من القطع الحريرية محفوظة في دار الآثار العربية بالقاهرة⁸ وقد عرف أصحاب نسيج الحرير بالقزازين، أما صناعات المنسوجات القطنية عرفوا بالبزازين.⁹

¹ محمود محمد الحويري، المرجع السابق، ص 290.

² الفيوم: هي في موضعين أحدهما بمصر والآخر موضع قريب عن هيت بالعراق فأما التي في مصر فهي ولاية قريبة من الفسطاط. أنظر: الحموي ياقوت شهاب الدين بن عبد الله الرومي البغدادي، معجم البلدان، تح: فريد عبد العزيز جندي، دار صادر، لبنان، بيروت، 1977، المجلد 4، ص 325.

³ مجدي عبد الرشيد بحر، القرية المصرية في عصر سلاطين المماليك (648-923/1250-1517م)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1999، ص 189.

⁴ زكي محمود حسين، فنون الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1948، ص 368.

⁵ مجدي عبد الرشيد بحر، المرجع السابق، ص 189.

⁶ تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المطبعة الأميرية، بولاق، 1937، ج1، ص 37.

⁷ البهنسا: مدينة بمصر من الصعيد الأدنى غربي النيل وتضاف إليها كورة كبيرة وليست على ضفة النيل وهي عامرة كبيرة كثيرة الدخل. أنظر: الحموي، المصدر السابق، مج 1، ص 516، 517.

⁸ زكي محمود حسين، المرجع السابق، ص 368.

⁹ مجدي عبد الرشيد بحر، المرجع السابق، ص 189.

كما اشتهرت مصر آنذاك بصناعة قماش الفستيان نسبة للفسطاط والقماش الديبقي نسبة إلى ديبق وقماش القصب صنعت منه عمام الرجال وملابس النساء، وقد عرفت دمياط¹ بصناعة أقمشة من التيل متعددة الألوان ولماعة، ووجدت مصانع خاصة سميت "دور الطرز" تصنع فيها الخلع التي يمنحها السلاطين الكبار رجالات الدولة والموظفين وتتقش عليها أسماء السلاطين وألقابهم.²

وبالإسكندرية نسيج القماش الفائق الذي ليس له نظير في الدنيا وإليها تهوى ركائب التجار من البر والبحر وتميز من قماشها جميع الأقطار³ كقماش مفرج الإسكندري⁴ والوشي⁵.

كما اشتهرت مدن الشام في العصر المملوكي بصناعة المنتجات فبعلبك⁶ عرفت بنسيجها القطني إضافة إلى منسوجات الموصل التي حازت إعجاب الناس بسبب رقتها ومتانتها ويستخدمها علية القوم ورؤسائهم لقمصانهم وعمائمهم،⁷ وازدهرت بيت المقدس طوال العصر المملوكي بصناعة المنتجات القطنية والحريرية التي تخصصت فيها بعض الأسر المقدسية.⁸

وقد اهتم سكان الشام بتربية دودة القز لإنتاج الحرير، وما شجعهم على ذلك وجود شجرة التوت في المنطقة وقد لعبت النساء دورا بارزا في تربية دودة القز وترتيبها وتفقيسها وعلفها وقطف الشرائق.⁹

لقد انتشرت معامل الحرير في مدن عدة من بلاد الشام وكانت معامل صور وعكا من أهم هذه المعامل حيث اشتهرت صور بمنتجاتها الحريرية المصبوغة باللون الأرجواني واشتهرت عكا بصنع

¹ دمياط: كورة من كور أرض مصر، يقال سميت بدمياط من ولد أشمن بن مصرام بن بيسر بن حام بن نوح عليه السلام. أنظر: ابن إياس، *نزهة الأمام في العجائب والحكم*، تح: محمد زينهم، محمد غرب، مكتبة صديولي، القاهرة، 1995، ص 205.

² مفيد الزبيدي، المرجع السابق، ص 235.

³ القلقشندي، *صبح الأعشى*، ج3، ص 463.

⁴ *المفرج السكندري*: نوع من النسيج الرقيق المذهب تصنع منه الطرح والكلوتات المزركشة. أنظر: القلقشندي، *صبح الأعشى*، ج4، ص 54.

⁵ *الوشي*: نوع من النسيج الحريري المحلي بخيوط الذهب كان يقوم مقام الوشي الكوفي. أنظر: السيوطي، المصدر السابق، ج2، ص 326.

⁶ *بعلبك*: مدينة قديمة فيها أبنية عجيبة وآثار عظيمة وقصور وهي قريبة من دمشق. أنظر: الحموي، المصدر السابق، المجلد 1، ص 453.

⁷ جاسون فيبيت، *القاهرة مدينة الفن والتجارة*، تر: مصطفى العبادي، مؤسسة فرنكلنت للطباعة والنشر، بيروت-نيويورك، 1998، ص 98.

⁸ محمد حافظ النقر، *تاريخ بيت المقدس في العصر المملوكي*، دار البداية، الأردن، 2006، ص 127.

⁹ النويري، المصدر السابق، ج10، ص 297.

قماش حريري سميك يعرف بالحرير المقصب حيث كانوا يدخلون في حياكته خيطانا مفضضة ومذهبة.¹

2. صناعة الخزف والفخار:

انتشرت في العصر المملوكي أنواعا متعددة من الخزف منها ما هو استمرار لأنواع ظهرت بالفعل في مصر والشام عن فترات سابقة على العصر المملوكي مثل النوع المعروف باسم تقليد السيلادون الصيني وهو نوع من أنواع الخزف صنعه الخزافون في القاهرة فيما بين القرنين 4-8هـ/10-14م، وهو ذو طلاء ثقيل تميزه عناصر زخرفية خاصة به عن بقية الأنواع الأخرى المعاصرة له.²

ومن الأنواع الأخرى الخزف ذو التوقيعات المزخرفة باللونين الأزرق والأبيض ولقد وصلتنا أعداد كبيرة من الصحون والأطباق من حفائر الإسكندرية وغيرها من المدن المصرية وكذا المدن الشامية أغلبها تحمل أسماء لصناع الخزف.³

ومن أشهر الحرفيين بمصر في نهاية القرن الثامن هجري (14 ميلادي) غزال ونجد إمضاءه على قطع كبيرة من خزف هذا العصر، وآخر اسمه العجيل وهذا الأخير جمع بين الزخارف النباتية والهندسية، وآخر يدعى المهندس وغيرهم من فناني هذا العصر في صناعة الخزف، كما امتاز عصر المماليك في مصر والشام بنوع خاص من الفخار المطلي بالميना وهذا النوع كان يستعمل بكثرة في بيوت الأمراء.⁴

امتاز الخزف المملوكي برسم الحيوانات والطيور القريبة من الطبيعة ذات المنقار الطويل وكذلك الوردة النجمية.⁵

¹ طه حسين زعاريير، المرجع السابق، ص 182.

² محمود إبراهيم حسن، المرجع السابق، ص 30.

³ أسماء علي فهد القيسي، الإسكندرية في عصر سلاطين المماليك دراسة في أحوالها العامة، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الإسلامي، قسم التاريخ، جامعة بغداد، 2015، ص 103.

⁴ زكي محمود حسين، المرجع السابق، ص 275.

⁵ محمود محمد الحويري، المرجع السابق، ص 232.

وقد عرفت مصر في نهاية العصر المملوكي صناعة القشاني لكسوة الجدران، ولكن هذه الصناعة لم تبلغ في مصر ما بلغته من الازدهار في إيران وتركيا وبلاد المغرب والأندلس، فقد كان القوم في مصر يفضلون تغطية الجدران بالرخام ولما يقبلوا على استعمال القشاني لتغطية مساحات كبيرة فاستعملوه مثلاً لتكسية القمة المضلعة من منارة خانقاه¹ ببيرس جانشكير² ثم في قمة المنذنة بجامع الناصر محمد بن قلاوون بالقلعة كما استعملوه في تكسية رقاب القباب.³

3. صناعة السكر:

من الصناعات الهامة في العهد المملوكي في مصر وبلاد الشام كانت صناعة السكر تدر أموالاً طائلة للخزانة السلطانية، ولقيت اهتماماً من السلاطين لكثرة استعمالهم السكر في مطابخهم،⁴ وقد ذكر ذلك المؤرخ ابن دقماق⁵ في قوله "مطبخ سلطانيه بخط دار الملك ولها شهرة بمكانها وهي سبعة على صف واحد" كما أن صناعة السكر ارتبطت بمظاهر حياة الرفاهية التي عاشها السلاطين المماليك والأمراء لارتباطها ببعض العادات والتقاليد الاجتماعية من جهة أخرى.⁶

انتشرت صناعة السكر بمصر على وجه الخصوص في قرى الصعيد ومدنه بالإضافة إلى قرى منخفض الفيوم حيث كانت تنتشر هذه المعاصر وسط حقول القصب وبالقرب منها.

وكانت هذه المعاصر كثيرة جداً حيث كان لجميع الأمراء أو معظمهم من المقطعين ومن رجال الدولة معاصر قصب خاصة بهم، ولم يكن العمل في هذه المعاصر يستمر طول العام وذلك تبعاً لطبيعة المحصول الموسمية فكان العمل بها يستمر منذ وقت نضوج القصب حتى النوروز أي وقت

¹ خانقاه: كلمة فارسية وتعني محلاً للتعبد والتزهّد والبعد عن الناس وبمعنى بيت أيضاً، دخلت هذه الكلمة العربية منذ انتشار التصوف. أنظر: محمد أحمد دهمان، المرجع السابق، ص 66.

² ببيرس جانشكير: البرجي المنصوري أصله من ممالك المنصور قلاوون، وبعد عتقه تولى الأسديّة للملك الناصر محمد بن قلاوون. أنظر: ابن تغري بردي يوسف الأتابكي جمال الدين أبو المحاسن (ت 874هـ)، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تح: نبيل محمود عبد العزيز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج 3، 1984، ص 467-468.

³ زكي محمود حسين، المرجع السابق، ص 250.

⁴ مصطفى غازي مصطفى بدور، المرجع السابق، ص 109.

⁵ ابن دقماق إبراهيم بن محمد بن أيّدمر العلاني، الانتصار بواسطة عقد الأمصار، المكتب التجاري للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت، د. ت، ص 27.

⁶ قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص 139.

تمام الفيضان،¹ كما أن مدينة الفسطاط احتوت ثمانية وخمسين مطبخا للسكر² وفي القاهرة كان يوجد من السكر ومعاصره الشيء الكثير³ وكان اليهود يعملون في هذه الصناعة وامتلك بعضهم مطابخ السكر في بعض أحياء القاهرة،⁴ كما احتوت مدينة ملوي⁵ إحدى عشرة معصرة للسكر ومن عاداتهم أنهم لا يمنعون فقيرا من دخول معصرة منها فيأتي بالخبزة فيطرحها في القدر التي يطبخ السكر فيه ثم يخرجها وقد امتلأت سكرًا فيتصرف بها.⁶

وقد اشتهرت بلاد الشام بجودة إنتاجها من السكر خاصة في المنطقة الجنوبية ومثال ذلك ما عرف عن السكر المنتج في الكرك والشوبك الذي عرف بسكر مونتريل الذي امتاز بنعومته وبياضه.⁷ وقد صنع السكر في المنطقة الساحلية لجنوب بلاد الشام ونابلس ونحو الأردن إذ وجد الكثير من معاصر قصب السكر في غور الأردن من شماله إلى جنوبه،⁸ وكانت المعاصر تقام قرب المناطق التي اشتهرت بزراعة قصب السكر وذلك حتى يصل المحصول إلى المعصرة بسهولة ودون مشقة أو تكلفة وقد وجد بعكا مصنع كبير للسكر ومخزن عرف بدار السكر.⁹

4. الحفر على الخشب:

عرفت هذه الحرفة في العصر المملوكي جودة عالية من الدقة ولا سيما المناير والخزانات والأبواب والكراسي والدكك، وازدهرت أساليب أخرى في زخرفة الخشب كتطعيم الحشوات بخيوط وأشربة رفيعة من نوع آخر من الخشب أغلى ثمنًا وأندر وجودًا أو بالعاج والعظم، ومن أمثله ذلك مصراع باب في دار الآثار العربية بالقاهرة.¹⁰

¹ مجدي عبد الرشيد بحر، المرجع السابق، ص 289.

² قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص 139.

³ المقرئزي، الخطط، ج2، ص 100.

⁴ قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص 139.

⁵ ملوي: مدينة على الجانب الغربي من النيل وأرضها معروفة بزراعة قصب السكر. أنظر: ابن إياس، نزهة الأعمى، ص 197.

⁶ ابن بطوطة، المصدر السابق، ج2 ص 65.

⁷ طه حسين زعاريير: المرجع السابق، ص 66

⁸ الحموي: المصدر السابق، المجلد 03، ص 400.

⁹ طه حسين زعاريير، المرجع السابق، ص 65.

¹⁰ زكي محمد حسين، المرجع السابق، ص 470.

كانت مصر طوال تاريخها فقيرة في الأنواع الجيدة من الأخشاب فاستوردتها من لبنان (الأرز والصنوبر)، ومن السودان (الأبنوس) ومن الهند الساج، واستعملتها مع بعض الأنواع المحلية (الجميز والنبق)¹، وقد ظهرت في عصر المماليك صناعة المشربيات التي كانت تزين واجهات الكثير من البيوت والقصور وساعدت على دخول الضوء اللطيف ومرور النسيم العليل.²

وقد ابتكر فنانو العصر المملوكي أشكالاً جديدة من المراوح النخيلية وحدات من الزخارف النباتية التي كان لتفاصيلها الدقيقة أهمية كبيرة في الزخرفة،³ وقد وصلت إلينا أسماء بعض المهرة من الفنانين في الحفر على الخشب مثل: أحمد بن عيسى ابن أحمد الدمياطي، وهو الذي صنع المنبر الموجود الآن بخانقاه الأشرف برسباي (825-841هـ/1422-1438م).⁴

ومن أشهر ما صنع من الخشب في بلاد الشام المنابر كمنبر صلاح الدين الأيوبي في المسجد الأقصى الذي أمر بصناعته نور الدين الزنكي وهو مرصع بالعاج والأنيوس وعليه تاريخ (564هـ/1168م)، وقد وضعه صلاح الدين في صدر المسجد الأقصى عندما حرر بيت المقدس من أيدي الصليبيين (583هـ/1187م).

ومن فنون الحفر على الخشب أيضاً في بلاد الشام صناعة "المهابيش" وهي عبارة عن أجران خشبية لدق البن، إضافة إلى صناعة مساند المصاحف التي اتخذت أشكالاً هندسية ومتشابكة غاية في الدقة والجمال،⁵ إضافة إلى صناعة آلة "الشبابة".⁶

لكن هذه الحرفة بدأت في التدهور في القرن 9هـ/15م على الرغم من وجود أمثلة طيبة في تلك المدة إلا أن أحسن ما صنع فيها لا يمكن أن ينافس ما صنع في العصور السابقة.⁷

1 عبادة كحلية، المجتمع المصري في العصرين المملوكي والعثماني، المجلس الأعلى للثقافة، 2007، ص 293.

2 نفسه، ص 594.

3 م.س ديماندا، الفنون الإسلامية، تر: أحمد محمد عيسى، دار المعارف، مصر، 1982، ص 122.

4 زكي محمد حسين، المرجع السابق، ص 469.

5 طه حسين زعاريير، المرجع السابق، ص 135-136.

6 الشبابة: هي آلة طربية تكون منقوبة من الأسفل بخمس فتحات، بحيث يمسك العازف بهذه الشبابة بيديه الاثنتين ويضع فمه في الجهة العلوية منها وينفخ في جوفها وبأصابع يديه يحركها. أنظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج2، ص 160.

7 م.س ديماندا، المرجع السابق، ص 469.

5. صناعة الزجاج:

بلغت صناعة التحف الزجاجية الإسلامية أوج عزها في مصر والشام فيما بين القرنين السادس والتاسع بعد الهجرة/12م-15م برعاية السلاطين الأيوبيين والمماليك وكانت الزعامة في الإنتاج هذا الزجاج في الزخارف المموهة بالمينا للشام ومصر وإن تكن صناعته قد عرفت في إيران والعراق.¹

ويعود فضل التقدم والإتقان لصناعة الزجاج المطلي بالمينا في العصر المملوكي إلى الصناع الشوام، ولا جدال في أن حلب ودمشق كانتا أهم مراكز صناعة الزجاج في القرنين 7 و8هـ/13 و14م، وعُدَّت منتجاتهم في الطليعة إذ غمر صناع دمشق أسواق القاهرة بمفاخر إنتاجهم، كما أطلق اسم دمشق على كل ما صُدِّر للبلاد الأوروبية من الأواني الزجاجية المذهبة المطلية بالمينا.²

أما في مصر خلال هذا العصر أهم مراكز صناعة الزجاج الإسكندرية، والأمر الذي شجع على ازدهار هذه الصناعة وفرة بعض المواد الأولية التي تدخل في صناعته، ومنها الرمال الصالحة التي كانت تنتشر بالقرب من الإسكندرية مضافا إلى مناجم النطرون الموجودة بكميات كبيرة في وادي النطرون عبر الإسكندرية والفيوم، وكذلك محافظة المدينة على تقليد صناعة الزجاج طوال العصر الإسلامي³ بالإضافة إلى مدن الفسطاط والفيوم.⁴

6. الصناعة المعدنية:

كان الإقبال على هذه الصناعة في مصر وبلاد الشام خلال العصر المملوكي عظيما جدا، فمصر اهتمت بالتحف المعدنية صنعت بها الثريات والأواني المنزلية والأباريق والصحون والشماعيد والكراسي والصناديق وغيرها، واستخدم النحاس في تغطية أبواب المساجد وقصور السلاطين وبيوت الأمراء وبأشكال هندسية وزخرفة معمارية رائعة الجمال والذوق والفن، لا زالت ماثلة في القصور والمتاحف في أنحاء

¹ زكي محمد حسين، المرجع السابق، ص 559.

² م.س ديماند، المرجع السابق، ص 238.

³ أسماء علي فهد القيسي، المرجع السابق، ص 103.

⁴ محمود محمد الحويري، المرجع السابق، ص 192.

مصر وبلاد الشام حتى الوقت الحاضر،¹ ومن أمثله ذلك باب خانقاه ببيرس الجاشنكير بالقاهرة وترجع إلى سنة 709هـ/1309م، ومن التحف المعدنية المملوكية رقبة شمعدان من النحاس المكفت بالفضة، وفي دار الآثار العربية بالقاهرة مقلمة من النحاس المكفت بالفضة، وهذا ما يدل على أن التكفيت² عرف شهرة كبيرة في ذلك العصر وقد أكد ذلك المقرئزي³ في كتابه الخطط (...وكان لهذا الصنف من الأعمال بديار مصر رواجاً عظيماً وللناس في نحاس الكفت رغبة عظيمة).

أما بلاد الشام فقد اشتهرت بالصناعة الذهبية، فقد ضمت عدداً كبيراً من صناعات الحلي ولا تكاد مدينة كبرى إلا وفيها عدد من أرباب هذه الصناعة النفيسة⁴ وكذلك صنعت القناديل⁵ من الذهب وعلقت سلاسل من ذهب أيضاً كانت تستخدم من قبل المسلمين والنصارى على حد سواء، وذكر النويري⁶ أن عدد ما استولى عليه الصليبيون من المسجد الأقصى ثلاثة وعشرون قنديلاً من الذهب بالإضافة إلى أدوات أخرى، وظلت هذه القناديل مستخدمة في بيت المقدس حتى بعد تحريرها.

ومن الاستخدامات الهامة للمعدن في بلاد الشام في عصر المماليك صك الدينانير،⁷ وتكشفت الأواني المنزلية المختلفة فقد وجدت في متاحف أوروبية عدة قطع مثل الشمعدان الذي دق عليه اسم صانعه وتاريخ صناعته (646هـ/1248م)، وكذلك إناء من البرونز المكفت تزينه مناظر تجسد حياة السيد المسيح (عليه السلام) وصور القديسين المحاربين إلى جانب الزخارف الأخرى.⁸ وفي المسجد الأقصى مقابل المحراب باب من النحاس صُفح (كُفت) بالذهب الأصفر ويسمى باب النحاس الأعظم.⁹

¹ مفيد الزبيدي، المرجع السابق، ص 235.

² التكفيت: هو ما تطعم به أواني النحاس من الذهب والفضة. أنظر: المقرئزي، الخطط، ج2، ص 105.

³ المصدر نفسه، ص 105.

⁴ ابن إياس، محمد بن أحمد الحنفي (ت: 930هـ/1524م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تح: مصطفى زيادة، دار الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1982، ج1، ص 156-157.

⁵ القنديل: مصباح كالقوكب في وسطه فتيل يملأ بالماء والزيت ويشعل. أنظر: إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، دار الدعوة، ج2، ص 162.

⁶ النويري، المصدر السابق، ج28، ص 257.

⁷ الدينار: كلمة فارسية معربة وأصلها دِنَار، وقد تكلمت بها العرب قديماً فصارت عربية. أنظر: ابن منظور محمد بن مكرم بن علي (ت 711هـ)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ج4، دبت، ص 292.

⁸ م.س ديمانند، المرجع السابق، ص 154.

⁹ الحموي، المصدر السابق، مج4، ص 298.

غير أن صناعة التكتيفيت فيما بعد قل ترويجها، ففي بلاد الشام أخذت بالتراجع بعد غزو تيمورلنك لها سنة 803هـ/1400م، فقد نهب معظم المدن الشامية ونقل خيرة من كان فيها من الفنانين والصناع إلى سمرقند¹، أما في مصر فيقول المقرئزي² "قل استعمال الناس في زماننا هذا للنحاس المكفت وعز وجوده، وبقي من صناعات الكفت القليل...".

7. صناعة استخراج الزيوت:

خصوصاً الزيت الحار من بذر الكتان،³ وذكر ابن دقماق في كتابه الانتصار وجود درب المعاصر بسوق القاهرة يتوفر على معصرة زيت لم يكن بمصر مثلها بجودة عمارتها وكثرة أعوادها وعدد أحجارها.⁴

وقد عرف شجر الزيتون في منطقة بلاد الشام منذ أقدم العصور، حيث انتشرت زراعته في معظم الشام من شمالها إلى جنوبها واعتبر من أهم الموارد الاقتصادية في ذلك العصر،⁵ ونظراً لكثافة أشجار الزيتون في منطقة جنوب بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي فقد أقيمت المعاصر العديدة لعصر الزيتون، واشتهرت المنطقة بجودة زيتها حيث كانت نابلس تنتج أنواع الزيوت ويصدر منه إلى الأقاليم المجاورة مثل مصر وبلاد الحجاز⁶ وكذلك مملكة صفد، فقد كانت تنتج أفضل أنواع الزيوت بالإضافة إلى القرى المحيطة بها وكذلك قرى جبال علجون والكرك ووادي موسى وشوبك.⁷ وقد بلغ زيت بلاد الشام من الجودة حداً جعل سلاطين المماليك يهادون به الملوك المعاصرين، فقد تضمنت هدية السلطان جقمق (842. 857 هـ/1438 . 1453م)⁸ إلى ملك الحبشة سنة (847هـ/1443م) زلعتين من زيت الطيب.⁹

1 ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج13، ص 20-21.

2 المقرئزي، الخطط، ج2، ص 106.

3 مجدي عبد الرشيد بحر، المرجع السابق، ص 191.

4 ابن دقماق، المصدر السابق، ص 26.

5 الحنبلي أبو اليمن القاضي مجير الدين، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، المطبعة الحيدرية، ج2، 1388هـ/1968م، ص 75.

6 الحنبلي، المصدر السابق، ج2، ص 77.

7 نفسه، ص 75.

8 جقمق: السلطان الملك الظاهر أبو سعيد جقمق بن عبد الله العلاني الظاهري، السلطان الرابع والثلاثون من السلاطين المماليك

سلطن سنة (842هـ/1438م)، توفي سنة (857هـ/1453م). أنظر: ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج4، ص 275.

9 الحنبلي، المصدر السابق، ج1، ص 85.

8. صناعة السفن:

أنشأ المماليك السفن على نوعين: سفن حربية وهي التي تنشأ للغزو وتشحن بالسلاح والآلات الحربية والمقاتلة، فتمر من ثغر الإسكندرية و ثغر دمياط وتتيس¹ والفرماء² إلى جهاد أعداء الله من الروم والفرنج، وكانت هذه المراكب الحربية يقال لها الأسطول، أما المراكب النيلية فإنها تنشأ لتمر في النيل صاعدة إلى أعلى الصعيد ومنحدرة إلى أسفل الأرض تحمل الغلال وغيرها.³ اهتم الظاهر بيبرس⁴ بصناعة السفن وتفقدتها بنفسه ومنع الناس من التصرف بأخشاب السفن، وكذلك فعل السلطان الأشرف خليل (689-693 هـ / 1290 - 1293 م) الذي أنشأ أسطولا بحريا بلغ ستين مركبا وجهزه بالآلات الحربية والرجال واستعرضه في جزيرة الروضة كاحتفال مشهود به، وقد كانت صناعة السفن الحربية على أنواع منها: الشواني⁵ والحراريق⁶ والطرائد⁷ والمسطحات⁸ وغيرها، وتستورد الأخشاب من الشام وآسيا الصغرى وغرب أوروبا عن طريق تجار البندقية، وأحيانا تستخدم الأخشاب المحلية.⁹ وكانت السفن الحربية في مصر تصنع على صنفين فبعضها كانت أجزاءها بمسامير والبعض الآخر كانت تضم أجزاءه بأحبال الليف.¹⁰

9. صناعات أخرى:

- 1 تنس: كانت أرضا لم يكن بمصر مثلها، وكان بها النخيل والكرم وسائر أصناف الشجر... وماء النيل لا ينقطع عنها. أنظر: ابن إياس، نزهة الأمم، ص 183.
- 2 الفرماء: هي أول مدن مصر من جهة الشمال، وبها أخلاط من الناس وهي مدينة قريبة من البحر الأخضر. أنظر: محمد عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984، ص 439.
- 3 المقريزي، الخطط، ج2، ص 189.
- 4 الظاهر بيبرس: بن عبد الله ركن الدين أبو الفتح الصالحي النجم بندقاري التركي، سلطان الديار المصرية... ولد بصحراء القبحاق من حدود العشرين والستمائة وأخذ من بلاده صغيرا. أنظر: ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج3، ص 448.
- 5 الشواني: مركب حربي كبير ذو أبراج وقلاع تستعمل في الدفاع والهجوم. أنظر: أسماء علي الفهد القيسي، المرجع السابق، ص 33.
- 6 الحراريق: أقل حجما من الشواني، وهي بمثابة ناقلات الجند والذخيرة. أنظر: سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص 290.
- 7 الطرائد: هي السفن الخاصة لحمل الخيل وكانت تتسع لنحو أربعين فرسا وأحيانا لثمانين. أنظر: سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع نفسه، ص 290.
- 8 المسطحات: من السفن الحربية الكبيرة، كانت تتسع لأكثر من خمسمائة راكبا. أنظر: أسماء علي فهد القيسي، المرجع السابق، ص 107.
- 9 مفيد الزبيدي، المرجع السابق، ص 285.
- 10 سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص 290.

نذكر منها صناعة الجلود التي تصنع بأشكال متنوعة وقيمة وأحياناً تحلى بالذهب والفضة،¹ وقد خصت بعض المدن من بلاد الشام سوقاً للجلود كان يسمى سوق "الآدميين"² مثل مدينة عجلون، وقد استخدموا جلود العجول في تجليد المخطوطات والمصاحف بصفة خاصة.³

كما اشتهرت مصر وبلاد الشام بالصناعات الحرفية دقيقة الصنع والتي يتطلب صنعها جهداً ودقة وصبراً، منها صناعة سكاكين الأقلام المذهبة والمطعمة بالجواهر والسلاسل الذهبية والفضية وأساور وخلاخل النساء والخواتم والقلادات الذهبية، حيث تركزت هذه الصناعات بأيدي الصناع من اليهود وكانت شبه حكر عليهم وأصابوا منها ثروات طائلة دفنوا أكثرها خوفاً من المصادرة.⁴

إضافة إلى صناعة الصابون التي ارتبطت صناعتها بصناعة زيت الزيتون، وكان لها أهمية كبيرة في العصرين الأيوبي والمملوكي خاصة في بلاد الشام، وقد عرفت منطقة جنوب بلاد الشام صناعة الصابون منذ زمن بعيد ومنتجت كميات كبيرة من الصابون وصنعت منه أنواع عدة مثل المعطر والملون، إلى جانب بعض أنواع الصابون الطبي لذلك صدر بكميات كبيرة إلى مناطق عديدة من العالم.⁵

ولأن المماليك أساساً دولتهم عسكرية فقد اهتموا بالصناعات الحربية من القوس والنشاب والحربة والسيف ووجدت أسواق في القاهرة لصناعات التسليحية،⁶ كما ظهرت في هذا العصر ببلاد الشام مراكز صناعة الأسلحة في مدن عديدة منها الكرك، وكان المغيـث عمر صاحب الكرك قد أعاد ترتيب السلاح خاناه⁷ سنة 661هـ/1263م، واستدعى المختصين لصنع أنواع الأسلحة المختلفة.⁸

¹ مفيد الزبيدي، المرجع السابق، ص 235.

² سوق الآدميين: هم المختصون بمختلف الصناعات الجلدية واتخذت كلمة الآدميين من الأديم وهو الجلد. أنظر: ابن منظور، المصدر السابق، ج12، ص 10.

³ م.س ديمان، المرجع السابق، ص 82.

⁴ مصطفى غازي مصطفى مدور، المرجع السابق، ص 115.

⁵ نفسه، ص 83-84.

⁶ مفيد الزبيدي، المرجع السابق، ص 234.

⁷ السلاح خاناه: هي مخازن السلاح، يخزن فيها جميع أنواع السلاح، في كل سنة كان يتم تزويدها بما يلزم من سلاح ومعادن إلى الثغور والقلاع المنتشرة في الدولة. أنظر: النويري، المصدر السابق، ج8، ص 257.

⁸ القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص 11.

المبحث الثالث: حركة التجارة.

1) التجارة الداخلية:

عرفت أسواق المدن في الدولة المملوكية نوعاً من التخصص في نوع البضائع، إذ كانت طائفة يسكنون حارة تعرف باسمهم كما يبدو من خلال مصادر تلك الفترة¹ فأسواق مدينة القاهرة عرفت عند المقريري بالقصبة،² وذكر فيها عدة أسواق متخصصة كسوق الشماعين معمور بحوانيت الشموع الموكبية والفانوسية، وسوق الدجاجين كان يباع فيه من الدجاج والإوز والسوق الحلاويين لبيع ما يتخذ من السكر حلوى، وسوق السلاح لبيع القصي والنشاب وسوق الكتبيين كان سوق الكتب وكان مجمعا لأهل العلم يترددون إليه،³ ولم تكن الأسواق دائماً تحمل أسماء مشتقة من نوع النشاط الذي يمارسه السوق، فهناك من أخذت أسمائها من أسماء المكان⁴ الذي أقيمت فيه مثل سوق جامع ابن طولون وسوق الخانقاه وغيرها.

كما وجدت بأسواق القاهرة مجموعة من الدروب كدرب المعاصر ودرب النجارين والصوافين والقياس⁵ مثل قيسارية المحلى لبيع الصوف وقيسارية ورثة الظاهر التي عرفت ببيع القماش، إضافة إلى الخانات⁶ والفنادق⁷ كفندق الحصر التي تباع فيه الحصر الرفيعة.⁸

كما وجدت بهذه الأسواق منازل وأماكن عبادة صغيرة جعلت منها مراكز حيوية للحياة الدينية والاجتماعية، وكان العلماء يبذلون الجهود الكبيرة ليرفعوا مستوى تأدية الفروض الدينية في أسواقهم.⁹

1 قاسم عبده قاسم، أسواق مصر في عصر سلاطين المماليك، مكتبة سعيد رأفت، القاهرة، 1976، ص 07.

2 القصبة: أعظم أسواق مصر، تحتوي على اثني عشر ألف حانوت خاصة بأنواع المأكّل والمشرب والأمتعة، ويعجز العاد عن إحصاء ما فيها من الأنواع فضلاً عن إحصاء ما فيها من الأشخاص. أنظر: المقريري، الخطط، ج2، ص 94-95.

3 المقريري، المصدر السابق، ص 96-102.

4 قاسم عبده قاسم، أسواق مصر في عصر سلاطين المماليك، ص 16.

5 القياسر: القيسارية من الأبنية التي شاع استعمالها في مصر للأغراض التجارية، وتضم أعداداً كثيرة من الحوانيت والمصانع.

أنظر: أسماء علي فهد القيسي: المرجع السابق، ص 109.

6 الخانات: الخان مبنى ضخم يحتوي على مجموعة من الحوانيت الكبيرة والصغيرة ومستودعات أخرى للبضائع، يتوسطه فناء كبير مغطى من أجل حفظ البضائع. أنظر: أسماء علي فهد القيسي، المرجع نفسه، ص 110.

7 الفنادق: بناؤها ضخم بها أكثر من طابق تحتوي على قاعات واسعة خصصت لعقد الاتفاقيات التجارية والمعاهدات. أنظر: أسماء علي فهد القيسي، المرجع السابق، ص 109.

8 ابن دقماق، المصدر السابق، ص 20-41.

9 لايدوس آير، مدن إسلامية في عهد المماليك، تر: علي ماضي، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1987، ص 175.

أما أسواق القرى لم تكن أسواقاً غذائية استهلاكية بالدرجة الأولى، بل كانت أسواقاً تجارية تبادلية تباع فيها الأقمشة والماشية وبعض المصنوعات إلى جانب المقادير البسيطة من السلع الغذائية، ولم تكن تعرف التخصص في نوع السلع إنما كانت جميع السلع تباع في السوق الواحدة،¹ كما عرف الريف المصري آنذاك أسواقاً دورية كانت تقام في يوم معين من أيام الأسبوع وأخرى مؤقتة كانت تقام في مواقع التجمعات حيث يجتمع عدد كبير حول مناسبة معينة سواء في مولد أو احتفال ديني وغيرها.²

وكان على جميع القرى في الدولة المملوكية أن تمتد أسواق العاصمة بسائر المنتجات والغلل والحبوب والخضروات والثروات الحيوانية وغيرها، وكان يأتي بهذه الغلال تجار عرفوا بالجلابة يشترونها من الأقاليم ثم يقومون بشحنها في مراكب النيل، كما أن الفلاحين كانوا يتجهون إلى القاهرة مباشرة بغللهم على ظهور إبلهم وكذلك كان يفعل العريان أصحاب الزراعات.³

كما اشتهرت الدولة المملوكية بالباعة الجائلين خاصة في أسواق القاهرة، فكانت تضيق بهم فكانوا يجلسون على الأرض في طول القصبة بأطباق الخبز وأصناف المعاش وبقال لهم أصحاب المقاعد، وكل قليل يتعرض الحكام لمنعهم وإقامتهم من الأسواق لما تحمل لهم من تضيق الشوارع وقلة بيع أرباب الحوانيت،⁴ كما كان للباعة الجائلين سوق بأكمله وهو سوق الققيصات كانوا يجلسون فيه تجاه القبة المنصورية على تخوت وضعت فوقها أقباص صغار (الققيصات) من الحديد وكان أولئك يستأجرون الأرض التي يجلسون عليها.⁵

كان مفتش الأسواق التجارية (المحتسب) مسؤولاً عن مراقبة نوعية السلع المصنوعة عاملين على إزالة الغش وتنظيم الأسواق ومراقبة الأسعار وقيمة العملات المسكوكة في أوقات الأزمات وجباية الضرائب.⁶

¹ مجدي عبد الرشيد بحر، المرجع السابق، ص 192.

² قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص 59.

³ مجدي عبد الرشيد بحر، المرجع السابق، ص 192.

⁴ المقرئزي، الخطط، ج2، ص 95.

⁵ قاسم عبده قاسم، أسواق مصر في عصر سلاطين المماليك، ص 19.

⁶ لايدوس آير، المرجع السابق، ص 167.

أما في بلاد الشام فقد كانت الأسواق التجارية منتشرة في المدن الرئيسية، ففي جنوب بلاد الشام كانت أسواق كل من بيت المقدس وبيت لحم وغزة والخليل والرملة وعجلون والبلقاء والكرك وصيدا وصور وكانت هذه الأسواق تصنع جميع ما يحتاج إليه من سلع وخدمات، فكانت السروج تصنع في هذه الأسواق كما تصنع جميع ما يحتاج إليه من سلع وخدمات.

بالإضافة إلى بعض الأسواق الموسمية تقام في موسم الحج مثل مدينة أيلة¹ التي كانت تفتح أسواقها أمام الحجاج المصريين وحجاج الشمال الإفريقي والسودانيين والأندلسيين في موسم الحج، فتؤمن كل ما يحتاجه الحاج في رحلته إلى الديار المقدسة.²

¹ أيلة: هي أول حد للحجاز، وهي مدينة جبلية القدر على ساحل البحر الملح، بها يجتمع حاج مصر والمغرب وبها التجارة الكثيرة، وأهلها من أخلاط الناس. أنظر: محمد عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص 80.

² مصطفى غازي مصطفى مدور، المرجع السابق، ص 135-154.

(2) التجارة الخارجية:

أثر الموقع الجغرافي لدولة المماليك بالإيجاب على النشاط التجاري لها، يحددها من الغرب الصحراء الليبية حتى برقة، ومن الجنوب بلاد النوبة وفي الشمال بحر الروم وبلاد الشام ومن الشرق بحر القلزم.¹

بذلك بسطت دولة المماليك نفوذها على البحر المتوسط والبحر الأحمر ومدخل المحيط الهندي، ما جعل منها حلقة وصل بين الشرق والغرب، فهي تقع على أقصر الطرق المؤدية إلى الهند مصدر السلع الأشد طلبا في أوروبا، كما تتصل أوروبا بالموانئ المملوكية على المتوسط، وبخطوط تجارية منتظمة بين الشرق والغرب تمر في تلك الموانئ بعدما قضى المغول على بغداد سنة 656هـ/1258م، وبسطوا نفوذهم على آسيا الصغرى وبلاد فارس التي اتخذها هولاكو مركزا له، فأضحى الطريق البري بين الصين وآسيا الصغرى محفوفًا بالمخاطر ما ساعد على بروز الموانئ المملوكية.²

عمل السلاطين المماليك في مصر والشام أمثال السلطان المنصور قلاوون (678-689هـ/1278-1290) على التودد إلى القوى الإسلامية الواقعة في حوض البحر الأحمر وتحسين العلاقة بحكامها، فأرسل إلى ملك اليمن يعاهده على المودة، وعند وصول رسله إلى مصر أكرمهم وأرسل معهم الهدايا إلى اليمن، وهي نفس السياسة مع شريف مكة.

كما كان لسياسة المماليك دور في ازدهار التجارة الخارجية من خلال تشجيع السلاطين لحركه التبادل التجاري في الموانئ المصرية والشامية ومنح التجار الأوروبيين تسهيلات وامتيازات اقتصادية، وهذا يتطلب تأمين الطرق التجارية من القراصنة لإيصال بضائع الشرق إلى موانئ الدولة المملوكية في البحر الأحمر³ عبر ميناء عيذاب⁴، والبحر المتوسط من خلال مينائي دمياط والإسكندرية،

¹ أبو الفداء، تقويم البلدان، دار صادر، بيروت، 1840، ص 103.

² أنطوان خليل ضومط، الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري، دار الحداثة، بيروت، 1980، ص 180-181.

³ سعيد عبد الفتاح عاشور، بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، بيروت، 1977، ص 136-137.

⁴ ميناء عيذاب: يقع على ضفة بحر القلزم، وهو مرسى للمراكب القادمة من عدن الواقعة على ساحل بحر الهند إلى الصعيد. أنظر: الحموي، المصدر السابق، ج4، ص 171.

وتشجيع التجار الأوروبيين على جلب بضائعهم إلى الموانئ المملوكية من فراء وأخشاب وحديد مقابل الحصول على البضائع الشرقية من توابل وبخور و عطور وأقمشة،¹ وذلك بتقديم الخدمات لهم ببناء الفنادق والخانات وتعيين القناصل داخلها للإشراف على شؤون التجار ومصالحهم فضلا عن حسن المعاملة التي تلقوها من طرف العاملين في الموانئ.²

إضافة إلى تجارة الشرق الأقصى والغرب الأوروبي شهدت دولة المماليك نشاطا تجاريا مع بلدان السودان وإفريقيا الوسطى، وقد عرفت بالتجارة الكارمية³ كما عرفوا أحيانا باسم التكرور⁴، وكان هؤلاء التجار يجلبون إلى دولة المماليك أهم البضائع وهي التوابل والفلفل والبهار والبذور والقرنفل وكلها أصناف تهافت الأوروبيين عليها، كما امتد نشاط هؤلاء التجار إلى جلب البهار من الصين والهند حتى أصبح اسم الكارمية يطلق على كل تاجر اشتغل بتجارة البهار والفلفل.⁵

جنى تجار الكارمية ثروة طائلة وأموالا كثيرة جعل السلاطين المماليك يقترضون المال منهم أحيانا إذا اضطرتهم الظروف، فقد قدم تجار الكارم المال للسلطان قطز لمواجهة المغول الزاحفين نحو مصر سنة 656هـ/1259م إسهاما منهم في إعداد الجيش وغيرها من المساعدات التي قدمت لسلاطين المماليك.⁶

1 سعيد عبد الفتاح عاشور، بحوث ودراسات، ص 136.

2 فتحي سالم حميدي اللهيبي وفانز علي بخيت الحديدي، جوانب من الحياة السياسية والاقتصادية في العصر المملوكي، الموصل، 1435هـ/2014م، ص 118.

3 تجارة الكارم: اتضح كيانها في العصر الفاطمي، إذ أنشأت الدولة أسطولا بعيذاب لحماية مراكب تجار الكارم. انظر: صبحي لبيب، التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى، المجلة التاريخية المصرية للدراسات التاريخية، المجلد 04، العدد 02، 1952، ص 7. وامتدت إلى العصر الأيوبي وزاد نشاطها بعد بناء تقي الدين عمر ابن أخ صلاح الدين الأيوبي لفندق لتجار الكارمية سنة 583هـ/1183م في مدينة فسطاط، وبلغت عصرها الذهبي في عصر المماليك حيث اعتبرت العماد الرئيسي للتجارة المملوكية في القرن 8هـ/14م، وحرصت الدولة على تذليل كل الصعوبات الأمنية والسياسية أمام تجارهم من خلال توفير مختلف الخدمات لهم. انظر: ضومط، المرجع السابق، ص 213-216.

4 تكرر: بلاد تنسب إلى إقليم السودان في أقصى جنوب المغرب، وأهلها أشبه الناس بالزنوج. انظر: الحموي، المصدر السابق، ج2، ص 38.

5 نعيم زكي فهمي، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1973، ص 142.

6 إيلاف عاصم مصطفى القيس، التجارة الكارمية في عصر المماليك بمصر 1260-1517م، رسالة لنيل درجة الدكتوراه، جامعة بغداد، 2006، ص 129.

زادت تجارة الدولة الخارجية بفضل المعاهدات التجارية التي عقدت مع الدول الأوروبية والشرقية، وأيضاً بسبب الاحتكاك بالأوروبيين إثر قيام الحروب الصليبية، فكان المماليك أصحاب قوة ونفوذ مما ساعدهم على الاستيلاء على الموانئ والطرق الواقعة بين أوروبا والشرق،¹ ومن أمثلة هذه المعاهدات معاهدات المماليك مع الجمهوريات الإيطالية في مقدمتها معاهدة السلطان المعز أيبك (648هـ-655هـ/1250م-1257م) مع البنادقة سنة 638هـ/1238م التي تنص على حماية البنادقة وممتلكاتهم ومنحهم الأمن، إلى جانب التقليل من الرسوم الجمركية، وحددت حقوق البنادقة في مصر والشام نتيجة الأهمية الاقتصادية للتجار الفرنج² كما أرسل حاكم جزيرة سيلان سفارة إلى المنصور قلاوون سنة 683هـ/1283م يدعوه فيها إلى تنشيط التجارة بين دولة المماليك وجزيرة سيلان، وتمت الموافقة بين الطرفين لتسهيل المبادلات التجارية.³

كان الحظ الأوفر للمماليك الجراكسة من التجارة العالمية بين الشرق والغرب وعقد الاتفاقيات مع الدول الأوروبية لدخول عدد أكبر من المراكب التجارية إلى الموانئ المملوكية مما انعكس على النشاط التجاري.⁴

ففي سنة 814هـ/1411م بعث دوق البندقية إلى السلطان الناصر فرج بن الظاهر برقوق (801هـ-808هـ/1398م-1405م) يدعوه فيها لتوفير الأمن للبنادقة ما سهل عليهم الدخول للدولة المملوكية.⁵

أما فلورنسا اتصلت بالمماليك بداية من القرن 9هـ/15م فقد حصلت على امتياز جديد هي الأخرى سنة 825هـ/1422م لتعيين قناصل في الإسكندرية ودمشق، إضافة إلى امتيازات في سنوات (892هـ/1489م) و (899هـ/1496م) و (900هـ/1497م).⁶

¹ محمد جمال الدين سرور، الظاهر بيبرس، ص 150.

² عادل زيتون، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دار دمشق، 1400هـ/1980م، ص 198.

³ سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المملوكي، ص 314.

⁴ فتحي سالم حميدي اللهيبي وفانز علي بخيت، المرجع السابق، ص 121.

⁵ فتحي سالم حميدي اللهيبي وفانز علي بخيت، المرجع السابق، ص 121.

⁶ أشنور، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، تر: عبد الهادي عبله، مراجعة: أحمد عسان، دار قتيبة، دمشق، 1985، ص 419.

الفصل الثاني:
الحياة الاجتماعية في العصر
المملوكي

الفصل الثاني: الحياة الاجتماعية في العصر المملوكي.

المبحث الأول: مكونات المجتمع المملوكي.

1) فئات السكان.

أ. العرب:

نزحت هجرات عربية إلى مصر منذ الفتح العربي لها واستقرت في جميع أنحاء مصر، ومن أشهر القبائل العربية الوافدة إلى مصر منذ فترة الفتوحات الإسلامية والتي استمر وجودها في مصر المملوكية موضحة في الجدول الآتي:

القبيلة	أماكن استقرارها	المصدر
بنو عذرة	كثرت عددهم في منطقة الدقهلية	القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص 359.
بنو هلال	كانوا على كثرة في بلاد الصعيد (عيزاب، القليوبية)	القلقشندي، قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتب الإسلامية (دار الكتاب المصري- القاهرة، دار الكتاب اللبناني- بيروت)، ط2، 1982، ص 118.
بنو سليم	كانوا قلة سكنوا بلاد الصعيد (الفيوم، البحيرة)	نفسه، ص 121.
بنو عقيل	كثرت عددهم في بلاد البحيرة من الديار المصرية	نفسه، ص 113.
بنو وائل	اختلطوا في مصر مساكن لهم في الحوف الشرقي منها	نفسه، ص 130.

. أما عن أشهر القبائل العربية الوافدة إلى بلاد الشام منذ الفتح الإسلامي وحتى العصر المملوكي في الجدول الآتي:

القبيلة	أماكن استقرارها	المصدر
آل فضل	ديارهم من حمص إلى قلعة جعبر إلى الرحبة	القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص 211، 212.
آل مرا	منازلهم من الجيدور إلى الزرقاء والظليل	القلقشندي، عقد الجمان، ص 80.
آل علي	ديارهم مرج دمشق وغوطتها مع أخوالهم آل فاضل وأعمامهم آل مرا	نفسه، ص 118.

يتضح من خلال الجدولين أن الوافدين من القبائل العربية إلى مصر قد تنوعوا وتكاثروا وكانت مراكز إقامتهم متعددة أكثر مما هو عليه في بلاد الشام، كما أن هذه القبائل قد استمر وجودها في مصر وبلاد الشام خلال العصر المملوكي عدا قبيلة بنو سليم الوافدة إلى مصر في عهد بيبرس البندقداري (658هـ-1260م/676هـ-1273م)، التي قل تعدادها في مصر نظرا لهجرة الكثير منهم إلى المغرب العربي في القرن الخامس هجري/ الحادي عشر ميلادي.

ب. الأكراد¹:

يرجع وجود الأكراد في مصر إلى عصر الدولة الأيوبية، ازدادت أعدادهم بشكل لافت للنظر وذلك بانتقالهم من مناطق سكنهم في الجزيرة وديار بكر أو بلاد الشام إلى مصر والاستقرار فيها، حيث أحضر أسد الدين شيركوه (546هـ/1168م)² عند دخوله إلى مصر ما يقارب خمس آلاف

¹ الأكراد: ينسبون إلى كرد بن مرد بن عمرو بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوزاه قيل من ولد عمرو بن عامر بن ماء السماء وهم قبائل عاشوا بفارس. أنظر: المقرئ، السلوك، ج1، ص 101.

² أسد الدين شيركوه: فاتح ديار مصر بن مروان بن يعقوب الدويني الكردي أخ الأمير نجم الدين أيوب، صار من أكبر أمراء نور الدين، وصار مقدم جيوشه. أنظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج20، ص 588.

كردي ومملوك، فضلا عن جماعات أخرى من الجماعات الكردية استقروا في مناطق مختلفة من مصر وفي جنوب أسوان¹ وشمال الإسكندرية ومناطق أخرى، فكانت أشهر قبائلهم الراوندية² والمروانية³ والهكارية⁴ الذين بلغت لهم مكانة متميزة في المجتمع المصري آنذاك.⁵

ويرجع دخول الأكراد إلى بلاد الشام إلى القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر ميلادي⁶، انتشروا في مناطق مختلفة من بلاد الشام مثل بيت المقدس وشيزر وصفد وعكا وبعض قرأها الساحلية وغيرها من المناطق، كما سكنوا أحياء خاصة بهم سميت باسمهم في بيت المقدس.⁷

ج. الأتراك:

نسبوا إلى ترك بن عابر بن شمويل بن يافث⁸ والترك هم الطبقة الحاكمة في مصر المملوكية، فالمماليك جاؤوا من أصول مختلفة يغلب عليها الجنس التركي، حيث اهتم الحكام بشراء مماليتهم من هذا الجنس، وما إن يشتري الحاكم المملوك فينزله في طبقة حسنة ونجدهم منفصلين عن سائر أفراد المجتمع المصري⁹ فلم يختلطوا مع السكان الأصليين كما لم يتزوجوا منهم.¹⁰

د. أهل الذمة:

- النصارى¹¹: الأقباط هم جزء من سكان مصر الأصليين، سكنوا في منطقتهم دمياط وقوص¹²

1 أسوان: مدينة كبيرة وكورة في آخر الصعيد وأول بلاد النوبة على النيل في شرقته. أنظر: البغدادي، المصدر السابق، ص 78.
 2 الراوندية: إحدى بطون بهدانية من منطقة دوين في آخر أذربيجان، قيل أصولهم ترجع إلى بني إيران بن آشور بن سام بن نوح. أنظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص 369.
 3 المروانية: تزعموا أنهم من بني مروان بن الحكم بن أبي العاص. أنظر: المقرئ، السلوك، ج1، ص 101.
 4 الهكارية: تزعموا أنهم من ولد عقبة بن أبي سفيان صخر بن حرب. أنظر: المقرئ، السلوك، ج6، ص 101.
 5 رشا كاظم الكعبي، الحياة الاجتماعية لمصر في عصر المماليك، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة الكوفة، 2014، ص 57-58.
 6 ابن شاهين الظاهري، المصدر السابق، ص 105.
 7 محمد سالم الطراونة، الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في عصر المماليك الجراكسة (784-922هـ/1382-1516م)، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، قسم الفلسفة في التاريخ الإسلامي، 2003، ص 84، 85.
 8 القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص 366.
 9 سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص 318.
 10 علي إبراهيم حسن، دراسات في تاريخ المماليك البحرية، مكتبة النهضة المصرية، 1944، ص 341.
 11 الأقباط: هم الغالبية من مسيحي مصر الذين آمنوا بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح عليه السلام، قيل أصولهم ترجع إلى (قبطايم) أحد أولاد مصرام الذي استثنى مدينة فقط بالصعيد. أنظر: يعقوب نخلة رفيلا، تاريخ الأمة القبطية، مطبعة متروبول، ط2، 2000، ص 18.
 12 قوص: مدينة كبيرة عظيمة واسعة هي قسبة صعيد مصر. أنظر: البغدادي (ت 739) صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق، مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تح: علي محمد الجاوي، دار الجيل، بيروت، 1992، ص 1009.

والإسكندرية وبابلون¹ وبلاد النوبة والحبشة، وكانت أعدادهم قليلة جدا في عصر المماليك وذلك لحدوث اضطهادات عديدة من سلاطين مصر²، فكانت أول مصيبة حاقت بهم على يد شرف الدين أبو القاسم هبه الله بن صاعد (506هـ-598هـ) الذي كان قبطيا وأسلم، وأول مظلمة بدأ بها أنه تصدى لهم فحصل منهم الجزية مضاعفة وقرر على التجار أموالا يدفعونها كل سنة ورتب مكوسا على الخيل والبغال والحمير وسائر الحيوانات وعلى سائر المبيعات³، وفي عهد الظاهر بيبرس (658-676هـ/1260م-1277م) تعرضت القاهرة للحرق في مدة سفره، فرد ذلك إلى النصارى واليهود وأنكر عليهم هذه الأمور التي تفسخ عهدهم وأمر بإحراقهم⁴. وقد استطاع بعض الكتاب الأقباط أن يشغلوا بعض المراكز الكبيرة في الدولة ولكن الشعب كان يظهر غضبه بمجرد ما يرى قبطيا له نفوذ⁵.

وفي بلاد الشام سكن النصارى إلى جوار المسلمين في المدن والقرى الشامية كأقلية لانحسار وجودهم بعد ظهور الإسلام، ومن أهم المناطق التي سكنوها: الكرك والشوبك وحروران ودمشق وحماة وحمص وعدد من القلاع والقرى الأخرى⁶، وقد انقسم النصارى في بلاد الشام على عدة طوائف منها: اللاتين والسرمان (طائفة اليعاقبة) والأرمن واليونان والكرج والإفرنج والموارنة والأقباط⁷.

• **اليهود:** قدر عددهم في الدولة المملوكية بخمسة عشر ألفا، اشتغلوا بمختلف الأعمال لا سيما التجارة، احتفظوا بمصر بمعابدهم كما حافظوا على عوائدهم ونظمهم الموروثة، وتولى زعامتهم رئيس أوحاخام وتمتع بالنفوذ الديني والقضائي⁸، وفي بلاد الشام كانوا أقلية سكنوا في المناطق التي تواجدوا فيها داخل أحياء خاصة بهم مثل حارة اليهود التي اشتهرت بهم في بيت المقدس وحلب، إذ عرف أحد أبوابها باسم باب اليهود لمجاورته حارة اليهود، كما وجدوا في أماكن خاصة

1 بابلون: اسم عام كديار مصر بلغة القدماء، وقيل اسم لموضع الفسطاط خاصة. أنظر: البغدادي، المصدر نفسه، مج 1، ص 146.

2 رشا فاضل كاظم الكعبي، المرجع السابق، ص 48.

3 يعقوب نخلة ربيعة، المرجع السابق، ص 20.

4 المقرئزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج 1، ص 535.

5 تاجر جاك، أقباط ومسلمون (منذ الفتح العربي إلى عام 1922)، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012، ص 148.

6 أبو الفداء، المصدر السابق، ص 247-250.

7 مبارك محمد سالم الطراونة، المرجع السابق، ص 60.

8 سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري، ص 45-49.

بهم في طرابلس وحماة واحتوت مدينة دمشق على جماعة يهودية كان لها حيها ورئيسها الخاص¹ وقد انقسم اليهود خلال هذا العصر إلى ثلاث طوائف: الربانيون² والقراؤون³ (العنانية) والمسامرة.⁴

هـ. المغول:

شهدت مصر طوال العصر المملوكي هجرات عديدة لكثير من أبناء العناصر المغولية المختلفة، وتفاوتت تلك الهجرات ما بين هجرات جماعية يعد بالآلاف وهجرات صغيرة تعد بالمئات أو هجرات أقل منها أحيانا، وكانت الأسباب مختلفة لتلك الهجرات فمنها:

وجود أفراد فروا من بين تلك الصفوف بعد هزيمتهم في معركة عين جالوت⁵ (658هـ/1260م)، وتوجهوا إلى سلطان مصر معلنين إسلامهم وخضوعهم، فبلغت أعدادهم زهاء ألف شخص ورتب لهم السلطان المملوكي الظاهر بيبرس الإقطاعات والطبخاناه⁶ فضلا عن الهبات والخلع⁷، وساعد على استمرار الهجرات المغولية إلى مصر نجاح السلطان الناصر محمد بن قلاوون (693هـ-1293م/741هـ-1341م) باتخاذ مسلمي المغول في حدود سلطنه المماليك مع دولة مغول إيران ليكونوا عيوننا على هؤلاء المغول فيأتون له بالأخبار.

و. الأقليات والجماعات الأجنبية:

1 مبارك محمد سالم الطوارنة، المرجع السابق، ص 65، 66.

2 الربانيون: سموا بهذا الاسم لاتباعهم تفاسير علماء اليهود في المنشأ والتلمود وهم جمهور اليهود. أنظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج 11، ص 379.

3 القراؤون: هم أصحاب عنان بن داود، أسست هذه الفرقة بعد الخلاف الذي حدث بين عنان وأخيه الأصغر حنانيا حول تولي منصب رأس جالوت، اشتق الاسم من الكلمة العبرية قرأ لأنهم كانوا لا يؤمنون بغير التوراة المكتوب. أنظر: قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص 260.

4 السامرة: فرقة دينية نشأت في فلسطين بعد سقوط مملكة إسرائيل بالاستيلاء على مدينة السامرة سنة 738 ق م. أنظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج 13، ص 271.

5 عين جالوت: بلدة لطيفة بين نابلس وبيسان من أعمال فلسطين، إليها انتهى عسكر المغل، فلقبهم بها البند قدار فكسرهم وكان ذلك انتهاء فتوحهم. أنظر: البغدادي، المصدر السابق، ص 977.

6 الطبخاناه: المراد بها ما نسميه في عصرنا موسيقى الجيش، وهي لفظ فارسي وتعني أيضا الفرقة الموسيقية السلطانية، تكون في صحبة السلطان في الأسفار والحروب وكانت العادة أن تدق نوبة في كل ليلة بعد صلاة المغرب. أنظر: محمد أحمد دهمان، المرجع السابق، ص 106.

7 صبحي عبد المنعم، المغول والمماليك: السياسة والصراع، مكتبة الإسكندرية، 2000، ص 80.

نذكر منهم الأرمن الذين كثروا في بلاد الشام خاصة في المناطق الشمالية منذ القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر ميلادي والبربر الذين جلبوا الى مصر منذ العهد الفاطمي¹، ووجدت في العصر المملوكي بمصر مجموعة كبيرة من الأقليات التي جاءت من أجل الإقامة بصفة خاصة في المدن والثغور لغرض التجارة، فكان لكل جالية قنصل يشرف على شؤون أفراد الجالية ومصالحها الاقتصادية، ومن هذه الجاليات الجنوبيون والبنادقة والفرنسيون والروس والألمان وغيرها من دول الغرب الأوروبي، ف اتخذت كل جالية فندقا خاصا بها وقد وفر لهم سلاطين المماليك الأمن²، كما وقد إلى بلاد الشام التجار من قطلونيا وجورجيا وأرمينيا وفارس والهند وفلورنسا وغيرها من الأقطار.³

2) طبقات المجتمع.

أ. الفئة الخاصة:

- **أهل الدولة⁴:** وهي طبقة السلطان والأمراء والوزراء وقادة الجند وكبار موظفي الدولة⁵، وقد تمتع أفراد الطبقة بامتيازات كفلت لهم حياه الترف والبذخ من خيرات البلاد كعائدات الأراضي الزراعية الموقوفة لهم وعائدات التجارة إضافة إلى عائدات الخراج والضرائب⁶، وكان المماليك طبقة عسكرية ممتازة سيطرت على البلاد وأهلها وكانت ذات نفوذ وسلطة وجاه⁷، وتنقسم فئة المماليك إلى قسمين هما: الأمراء⁸ والأجناد⁹ وقد كان لتربيتهم في الطباق¹⁰

¹ محمد سالم الطراونة، المرجع السابق، ص 87.

² رشا فاضل كاظم الكعبي، المرجع السابق، ص 60-61.

³ ابن الشحنة، المصدر السابق، ص 252.

⁴ المقرئزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة، تح: كرم حلمي فرحات، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 2007، ص 147.

⁵ ابن خلدون، ولي الدين عبد الرحمن بن محمد (ت 808هـ) المقدمة، تح: عبد الله محمد الدرويش، مكتبة الهداية، دمشق، 2004، ج2، ص 183.

⁶ نبيل خالد أبو علي، المرجع السابق، ص 29.

⁷ سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري، ص 16.

⁸ الأمراء: حسب النظام العسكري المملوكي ينقسمون إلى أربعة رتب عسكرية هي أمير مائة وأمير طبلخانة وأمير عشرة وأمير خمسة. أنظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص 14.

⁹ الأجناد: وهم قسمين إما جنود حلقة أو مماليك النائب والأمراء. أنظر: ابن شاهين، المصدر السابق، ص 104، 105.

¹⁰ الطباق: مفردا طبق، وهي المدارس العسكرية التي يتعلم فيها المماليك العلوم الدينية والتدريبات العسكرية. أنظر: عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، القاهرة، 1989، ص 19.

أثر في انعزالهم عن المجتمع.¹

● **المعممون:** من أرباب الوظائف الديوانية والفقهاء والقضاة والعلماء والأدباء والكتاب، تسميهم بعض المصادر أهل العمامة، كما أطلق عليهم أرباب الأقاليم تمييزاً لهم عن غيرهم من الطوائف²، استفاد السلاطين من نفوذهم ومكانتهم لتوثيق علاقاتهم ومد جسور التقارب مع الشعب، وعنوا بالاحترام والإجلال بل وصل الأمر إلى مخافة المماليك منهم عند نقدهم والتهكم عليهم.³

ومن مظاهر احترام المماليك للعلماء نهوض بعض السلاطين وقيامهم والمشى خطوات لاستقبالهم ومعانقتهم ومحادثتهم وملاطفتهم، وكان السلطان المملوكي يرسم للأعيان في مصر الخروج لاستقبالهم أثناء زيارتهم للسلطان ويأمر بإنزالهم في بيوت فيها جميع ما يحتاجون إليه أثناء إقامتهم في القاهرة ويجهز لبعضهم قبل طلوع القلعة سماطاً أو فرساً ويتلقاهم السلطان بالقبول والتعظيم والإحسان.⁴

ب. الفئة المتوسطة:

● **التجار وأولو النعمة والترف:**⁵ أفراد هذه الفئة يختلفون في طرائق معيشتهم وهيئة لباسهم عن باقي طبقات المجتمع بما تمتعوا به من نعم وقربتهم لحياه المماليك بعض الشيء.⁶

قيام مصر بنشاط تجاري كبير بين الشرق والغرب في ذلك العصر أدى إلى ثراء التجار وتمتعوا بالاحترام الكبير والمكانة البارزة في مختلف المدن والبلاد المصرية، وفي دمياط أبيع للتجار أن ينوبوا عن قضاتها⁷، وقد أخذ التجار الشوابكة للسلطان الظاهر برقوق (784-791هـ/1382-1389م) مائة ألف دينار لمساعدته أثناء محاولته استعادة عرش السلطنة عام 791هـ/1389م.⁸

الفصل الثاني الحياة الاجتماعية في العصر المملوكي

1 المقريزي، السلوك، ج4، ص 132.

2 نفسه، ص 35.

3 مفيد الزبيدي، المرجع السابق، ص 223.

4 محمد سالم الطراونة، المرجع السابق، ص 96.

5 المقريزي، إغاثة الأمة، ص 148.

6 أسماء علي فهد القيسي، المرجع السابق، ص 123.

7 سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري، ص 41-42.

8 ابن الفرات ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم، تاريخ الدول والملوك، تح، ميخائيل خوري، مكتبة تاريخ وأثار دولة المماليك، بيروت، 1961، مج9، ج1، ص 140.

● أصحاب البز¹ وأرباب المعاش²: وهم الصناع وأرباب الحرف ومعظم هؤلاء الصناع هم ممن ارتحل من بلاد الشام أو من مناطق أخرى بسبب الظروف التي تعرضت لها مناطق العالم الإسلامي بعد هجوم المغول أو لأسباب أخرى أدت إلى حضورهم إلى مصر³، وقد وصف الصناع والحرفيون في بلاد الشام بأنهم مهرة، ولمهارتهم عهد تيمور لنك عام 803هـ/1400م لتهجير الحرفيين كنساجي الحرير والقطن وصانعي الزجاج والأسلحة إلى سمرقند⁴.

ج. الفئة العامة:

● أصحاب الفلاحة والحرف⁵: هم السواد الأعظم من السكان⁶، لم يكن يصيبهم في عصر المماليك سوى ضنك العيش بسبب تعرضهم إلى أعمال التعدي وفرض الغرامات المتصاعدة على كاهلهم من قبل رجال الإقطاع وأعوانهم، وكذلك غزو العريان وأعمال التخريب والسلب والنهب⁷، وقد وصف ابن خلدون⁸ مهنتهم بأنها "معاش المستضعفين".

● الزُّعَار⁹ والحرافيش¹⁰: هم أهل الخصاصة والمسكنة، فنى معظمهم جوعاً ولم يبق إلا أقل من القليل¹¹، عرفوا في بلاد الشام بالزعر وفي مصر بالحرافيش وفي العراق بالعيارين¹². استغل الزعر وقوع الفتن والمؤامرات للحصول على المال عن طريق النهب والسلب ويضاف إلى ذلك قيامهم بالاستيلاء على البضائع من حوانيت التجار، وتعيين من يبيعها لحسابهم مقابل حمايتهم من

الحياة الاجتماعية في العصر المملوكي

الفصل الثاني

1 البز: الثياب وقيل ضرب من الثياب وقيل البز من الثياب، والبزاز بائع البز وحرفته البزازة. أنظر: ابن منظور، المصدر السابق، ج1، باب الباز.

2 المقرئزي، إغاثة الأمة، ص 148.

3 رشا فاضل كاظم كعبي، المرجع السابق، ص 79.

4 محمد سالم الطراونة، المرجع السابق، ص 105، 106.

5 المقرئزي، إغاثة الأمة، ص 148.

6 سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المملوكي، ص 325.

7 إبراهيم حسن صادق ربابعة، نهاية دولة المماليك، دراسة تحليلية منطقة طولكرم التعليمية، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، فلسطين، العدد 14، 2008، ص 2.

8 المصدر السابق، ص 295.

9 الزُّعَار: الزعر في شعر الرأس وفي ريش الطائر: قلة ورقه وتفرق منه وقيل للأحداث زعران، والزعر جمع زاعر وهو اللص والمحتال والعبار والحرفوس والمتشرد. أنظر: ابن منظور، المصدر السابق، باب الزعر، المقرئزي، إغاثة الأمة، ص 45.

10 الحرافيش: وصفهم ابن بطوطة في مصر بأنهم طائفة كبيرة أهل صلابة وجوه ودعارة. أنظر: ابن بطوطة، المصدر السابق، ج2، ص 85.

11 المقرئزي، إغاثة الأمة، ص 149.

12 لايدوس أير، المرجع السابق، ص 259.

الضرائب، وللقضاء على تعديات الزعار قامت الدولة المملوكية بمعاقتهم بالشنق وتدمير أحيائهم عند ازدياد تعدياتهم.¹

الحياة الاجتماعية في العصر المملوكي

الفصل الثاني

¹ سميرة عبد اللطيف علي ذياب، صور المجتمع الشامي في الدولة المملوكية الأولى تنثرا (648هـ-783هـ/1250م-1381م)، رسالة مقدمة للحصول على درجة الماجستير، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة مؤتة، 2007، ص 35.

المبحث الثاني: الأعياد والاحتفالات العامة.

اهتمت دولة المماليك في مصر وبلاد الشام بالأعياد والمناسبات كمظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية للدولة، وقد اتخذت بعض هذه الأعياد طابعا دينيا لاتصاله بتراث وديانات بعض فئات المجتمع المملوكي، وبعضها الآخر اتخذ طابعا عاما حظي باهتمام الدولة وهو نهج سار عليه المماليك على خطى الأيوبيين في العناية بالأعياد والاحتفالات الدينية والقومية.¹

1. الأعياد الدينية في مصر وبلاد الشام:

أ. أعياد المسلمين:

عيد الفطر حيث يستعد الناس بإعداد الملابس والكعك وغيره من الحلّي التي يتم صنعها في الأيام الأخيرة من شهر رمضان ليتبادلوا بها التهاني العيد في الفاتح من شوال وفي الصباح الباكر لأول أيام العيد يجتمع الناس في المسجد لصلاة العيد ويذهب العامة إلى المقابر لزيارة الموتى من الأقارب²، أما بالنسبة للسلطان فتحمل إليه الخلع ويقبل الأمراء يده، وفي الصباح ينزل إلى البلاط السلطاني لتأدية صلاة العيد ثم يعود إلى الديوان ويمد السماط الفخم وفيه أنواع من الأكل والشراب³، واحتفل أهل الشام بنفس الطريقة.

أما في عيد الأضحى فبعد صلاة العيد تذبح الأضاحي أمام السلطان، ويتم توزيع عدد كبير من الخلع في يوم النحر كما اعتادوا على توزيع الأضاحي على المماليك⁴، وكانت هذه العادات في كل من مصر وبلاد الشام.

إضافة إلى رأس السنة الهجرية، ففي غرة محرم يطلع الخليفة والقضاة الأربعة إلى القلعة لتهنئة السلطان بالعام الجديد⁵، فيمنح الأخير الأرزاق والمنح لأرباب الرواتب، حيث جرت العادة في مستهل

الفصل الثاني

الحياة الاجتماعية في العصر المملوكي

1 الناطور، المرجع السابق، ص 303.

2 مجدي عبد الرشيد بحر، المرجع السابق، ص 295.

3 سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري، ص 209، 210.

4 نفسه، ص 211.

5 ابن إياس، بدائع الزهور، ج2، ص 867.

كل شهر هجري يطلع الخليفة والقضاة لتهنئة السلطان¹، ولم يقتصر ذلك عليهم بل حرص العلماء والتجار وعامة الناس على ذلك في مصر وبلاد الشام.

أما عاشوراء (اليوم العاشر من محرم) اعتبرت من المواسم الشرعية فالتوسعة فيه على الأهل والأقارب واليتامى، وجريت العادة فيه على ذبح الدجاج وطبخ حبوب القمح وزيارة القبور وشراء البخور، وتزور النساء عادة الجامع العتيق بمصر² والجامع الأموي بدمشق ويقضين يومهن في الدعاء³، ثم يأتي المولد النبوي الشريف في شهر ربيع الأول ويبدأ الاحتفال به مع مطلع الشهر ويستمر إلى الثاني عشر منه، ومنذ عهد السلطان الأشرف قايتباي (872-901هـ/1467-1496م) جرت عادة السلاطين على إقامة خيمة كبيرة تدعى خيمة المولد⁴، ويجلس السلطان وفي محضره القضاة الأربعة وشيخ الإسلام ويمد السماط وتحضر سفرة لطيفة بعد صلاة المغرب⁵.

يحتفل بالمولد النبوي في بلاد الشام على غرار ما يحتفل به في مصر⁶، وكان من عادات أهل الشام عمل الاحتفالات الخاصة كالخطوبة عقب المولد ليبارك الله لهم ذلك وكانت تقام في بعض المدن برك صغيرة تملأ بعصير الليمون أو ماء الخروب لمدة ثلاثة أيام احتفالاً بذكرى المولد⁷.

وفي هذه المناسبة يقرأ القرآن وتتشد المدائح عن الرسول صلى الله عليه وسلم، كان العامة يحتفلون بالمولد على طريقتهم بداية من قراءة الكتاب العزيز وينظرون إلى من هو أكثر معرفة الطرق المهيجة لطرب النفوس، وبعدها يقبلون على شهوات نفوسهم من سماع اللهو والغناء ومنهم من يرقص ويبكي ويتباكى، كما كانت تقام في البيوت حفلات نسائية وفي أغلب الأحيان تخالطه مفاصد كثيرة لاختلاط النساء بالرجال⁸.

الفصل الثاني

الحياة الاجتماعية في العصر المملوكي

1 ابن إياس، بدائع الزهور، ج2، ص 867.

2 ابن الحاج، المصدر السابق، ج1، ص 290.

3 فريال بدوى يوسف الزربا، الحياة الاجتماعية في دمشق في العهد المملوكي، رسالة لنيل الماجستير، قسم التاريخ، كلية الأدب، جامعة الأردن، 1400هـ/1980م، ص 361.

4 قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص 118.

5 ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر بأبناء العمر، تح: حسن حبشي، القاهرة، 1392هـ/1972م، ج3، ص 418.

6 إبراهيم زعرور، الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصر الأيوبي والمملوكي، رسالة لنيل درجة الدكتوراه، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق، 1411هـ/1990م، ص 191.

7 مبارك محمد سالم الطراونة، المرجع السابق، ص 144.

8 ابن الحاج، المصدر السابق، ج2، ص 5، 6.

أما دوران المحمل¹ كان في النصف الأخير من شهر رجب، وكان الاحتفال به في عصر المماليك يحدث مرتين الأولى في رجب والثانية في شوال، والأولى قد استحدثها السلطان الظاهر بيبرس سنة 657هـ/1276م والهدف من ذلك كان إخبار الناس أن الطريق من مصر إلى الحجاز آمن²، ويحتفل المماليك بموسم الحج واهتموا بكسوة الكعبة المصنوعة من الحرير المطرز بالذهب وتحمل على الجمل، ويبدأ الموكب في باب النصر وأمامه الوزير والقضاة الأربعة والمحتسب والشهود وناظر الكسوة، ويركب بعض المماليك بالزي العسكري ويسير الموكب حتى القلعة ثم ينصرف المحمل إلى الفسطاط ويخرج مكوب الحج في شكل مهيب تحشد له الجموع³، أما في بلاد الشام وجدت أربعة محامل هي: المحمل الشامي في دمشق والمحمل الحلبي الذي يحل محل الأول في بعض الموانئ عند حدوث الفتن في دمشق، ظهر في أواخر القرن الثامن هجري ثم انقطع بسبب عدم أمن الطريق الشامي نتيجة لتهديد المغول⁴.

وظهر المحمل الكركي عام 869هـ/1465م وكان أكثر بساطة من سابقه، وأخيرا المحمل الغزاوي والذي ذكر سنة 841هـ/1438م و894هـ/1489م. كان الركب الشامي ينطلق من دمشق ويضم أهل الشام وحمص والقدس وغزة والكرك⁵، ويكون دوران المحمل عند عودة الحجاج إلى دمشق في أوائل شهر صفر حيث يخرج النائب لاستقبالهم ومعه كبار الأمراء والقضاة والجند، ويخرج أغلب أهالي دمشق، وكان الموكب عظيما، ومن عادات أهل دمشق تقديم الهدايا للسلطان عند عودته من الحج لفرحتهم به مثل ما حصل مع الظاهر بيبرس سنة 667هـ/1268م⁶.

يبدأ إحياء شهر رمضان سواء أكان في مصر أو بلاد الشام باستطلاع الهلال، ويكون باجتماع فقهاء المدينة في اليوم التاسع والعشرين لشعبان بدار القاضي ثم يتوجهون إلى موضع مرتفع خارج

الفصل الثاني

الحياة الاجتماعية في العصر المملوكي

1 المحمل: صندوق خشبي مربع يعلوه هرم تسدل عليه كسوة من الحرير مزركشة بتزيينات وكتابات مزينة بالذهب والفضة، وكان اللون الأصفر هو لون كسوة المحمل في عصر المماليك وكان يكتب عليه بعض العبارات مثل: "آية الكرسي لفظ "الشهادة". أنظر: يوسف جاغلان وصالح كولن، المحمل الشريف ورحلته إلى الحرمين الشريفين، ترجمة حازم سعيد منتصر وأحمد كمال، دار النيل، القاهرة، 2015، ص 149.

2 محمد ريحان، المرجع السابق، ص 175.

3 القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص 362.

4 مبارك الطراونة، المرجع السابق، ص 171.

5 مبارك الطراونة، المرجع السابق، ص 171.

6 فريال بدوى يوسف الزربا، المرجع السابق، ص 379.

المدينة وهو مرتقب الهلال عندهم فيرقبونه ويعودون بعد صلاة المغرب حاملين الشمع والفوانيس¹، وفي ليالي شهر رمضان كانت الأسواق تظل مفتوحة طوال الليل تستقبل زبائنهم وكانت بعض الأسواق ترتبط بهذا الموسم منها سوق الحلويين والشماعين حيث كانت تزين الشموع المكان بمختلف الأضواء²، كان السحور قبل طلوع الفجر بقليل واختلفت عوائد أهل الأقاليم في التسحر سواء بفضل المؤذنين بالجوامع أو بالطبلة التي يطاف بها على البيوت ويضرب عليها، أما أهل الإسكندرية واليمن فيسحرون بدق الأبواب على أصحاب البيوت وينادون للقيام للسحور³.

اهتم المماليك بمناسبات إسلامية أخرى مثل ليالي القود الأربع من كل سنة وهي ليلة أول رجب وليلة نصفه وليلة أول شعبان وليلة نصفه، واهتموا بزيادة وقود الشموع والقناديل في الجوامع ويتم ذكر الله تعالى والقراءة والخطب⁴.

ب. أعياد أهل الذمة:

في عصر المماليك في مصر والشام استمر اليهود والنصارى يحتفلون بأعيادهم الخاصة على نطاق حاراتهم وضمن أديرتهم وكنائسهم وأحيانا يحتفلون بها قرب مزاراتهم وأماكنهم المقدسة⁵.

- أعياد النصارى:

انقسمت الأعياد المسيحية إلى الأعياد الكبار والأعياد الصغار، أول الأعياد الكبار "عيد البشارة" وموعده 29 برمهاة (مارس) يحتفل به بشارة بمولد المسيح عيسى عليه السلام، والعيد الثاني "عيد الزيتونة" ويعرف بالشعانين والتي تعني سعف النخيل بالسريانية ومعناها بالعربية التسبيح وموعده سابع أيام صومهم، ومن عاداتهم في ذلك العيد أن يحملوا بأيديهم سعف النخيل وأغصان الزيتون ويزعمون دخول المسيح البيت المقدس⁶، والعيد الثالث هو "عيد الفصح" يحتفلون به يوم الفطر من

الفصل الثاني

الحياة الاجتماعية في العصر المملوكي

¹ مجدي عيد الرشيد بحر، المرجع السابق، ص 295.

² قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص 116.

³ ابن الحاج، المصدر السابق، ج 2، ص 255.

⁴ الفلقشندي، صبح الأعشى، ج 4، ص 217.

⁵ ابن الشحنة، المصدر السابق، ص 95.

⁶ ابن إياس، نزهة الأمم، ص 235.

صومهم الأكبر ويدعي النصارى أن المسيح قام بعد صلبه وجلس مع تلاميذه وأقام في الأرض أربعين يوماً.¹

العيد الرابع يطلق عليه اسم "خميس الأربعين" ويدعي النصارى أن المسيح بعد أربعين يوماً من القيام وخرج مع تلاميذه حيث باركهم وصعد إلى السماء وعاد التلاميذ إلى البيت المقدس²، يعرف عند أهل الشام بالمسلاق أو عيد الصعود³، أما العيد الخامس فهو "عيد الخميس" ويسمى أيضاً بعيد العنصرة وكان يحتفل به بعد خمسين يوماً من عيد القيامة ويقصد به حلول روح القدس على تلاميذ المسيح بعد صعوده للسماء⁴، ويكون في 26 بشنس (ماي).

العيد السادس وهو "عيد الميلاد" الذي يصادف 29 كيهك (ديسمبر) ويعتقد أن النصارى أن يوم الإثنين هو مولد المسيح في بيت لحم حيث يتوافدون إلى هناك ويحتفلون بإضاءة المصابيح بالكنائس ويلعبون بالمشاعل.⁵

أما العيد السابع هو عيد الغطاس المصادف لـ 11 طوبة (جانفي) وهو اليوم الذي اغتسلت فيه مريم عليها السلام من النفاس، فاتخذ النصارى ذلك سنة لهم في كونهم يغتسلون في تلك الليلة والتي كان لها شأن عظيم بمصر فقد كان الآلاف من الناس من المسلمين والنصارى يحضرون إلى النيل ولا يتناكرون كل ما يمكن إظهاره من المآكل والمشرب وآلات الذهب والفضة.⁶

أما أول الأعياد الصغار "عيد الختان" المصادف لـ 6 بؤونة (جوان) حيث يزعم أن المسيح ختن في هذا اليوم وهو الثامن من الميلاد، وثانيها "عيد الأربعون" موعده 8 أمشير (فيفري) ويمثل دخول المسيح الهيكل، أما الثالث فهو "خميس العهد" ويعمل قبل الفصح بثلاثة أيام، وسنتهم فيه أن يملأوا إناء من ماء وبزمنمون عليه ثم يغسل لتبرك به أرجل سائر النصارى⁷، كما يسمى "خميس العدس"

الفصل الثاني الحياة الاجتماعية في العصر المملوكي

1 قاسم عبده قاسم، أهل الذمة في مصر من الفتح الإسلامي حتى نهاية المماليك، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 2003م، ص 113.

2 قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص 113.

3 المقرئزي، الخطط، ج1، ص 734.

4 نفسه.

5 شيخ الربوة، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، بغداد، 1963، ص 369.

6 ابن الحاج، المصدر السابق، ج2، ص 59.

7 المقرئزي، الخطط، ج1، ص 737.

عند أهل مصر لأن النصارى يطبخون فيه العدس المصفى، ويسميه أهل الشام "خميس الأرز"¹ وخميس البيض، ثم يليه العيد الرابع وهو "سبت النور" يكون قبل الفصح بيوم ويزعمون أن النور يظهر على قبر المسيح²، والعيد الخامس يصادف أول يوم أحد بعد الفصح بثمانية أيام ويسمونه حد الحدود ويحتفل فيه بتجديد الأثاث والملابس وغيرها، كما يتزعمون أنه في عيد التجلي المصادف لـ 13 مسرى (أوت) يتجلى المسيح لتلاميذه بعدما رفع ثم يأتي عيد الصليب وهو من الأعياد المحدثة.³

- أعياد اليهود:

قسمت أعياد اليهود إلى خمسة أعياد، أولها عيد رأس السنة المصادف لـ 1 تشرينى يهودى (أكتوبر) وهو بمثابة عيد الأضحى عندهم ذكرى فداء اسحاق عليه السلام من الذبح⁴، اسمه بالعبرية "رأس هشيا" وفي العبرية الحديثة "روش هشاناه"⁵، حيث هناك اختلاف في طريقة الاحتفال به عند كل من القرائين والربانيين إذ كان الربانيون ينفخون في الأبواق أثناء صلاتهم، بينما اكتفى القراؤون بالصلاة والتهليل حمدا وشكرا لله لأنه يوم عتق الرقاب لديهم.⁶

والعيد الثانى هو "عيد صومرايا" ويعني الصوم العظيم وسمى أيضا عيد الكبور أو عيد الغفران أو الكفارة عند اليهود المصادف لـ 9 تشرينى (أكتوبر)، وقد جعل الربانيون مدة صومه 25 ساعة وقد تشدد السامرة في صيامهم فلم يستثنوا من ذلك حتى الأطفال الرضع، ويعتقد اليهود أن هذا الصوم سبب لغفران ذنوبهم⁷، يأتي "عيد المظلة" أو عيد الظل موعده 15 تشرينى (أكتوبر) وهو سبعة أيام، وفي اليوم الثامن عيد الاعتكاف⁸ كما يرجعه البعض إلى أصول زراعية ورعوية، فمن أسمائه "حج ها أسيف" أي عيد التخزين.⁹

الفصل الثانى

الحياة الاجتماعية فى العصر المملوكى

1 ابن الشحنة، المصدر السابق، ص 95.

2 قاسم عبده قاسم، أهل الذمة، ص 115.

3 شيخ الربوة، المصدر السابق، ص 369.

4 عبد المجيد دياب، تاريخ اليهود وآثارهم فى مصر، دار الفضيلة، القاهرة، 1997، ص 141.

5 حسن ظاظا، الفكر الدينى الإسرائيلى أطواره ومذاهبه، معهد البحوث والدراسات العربية، 1971، ص 201.

6 عبد المجيد دياب، المرجع السابق، ص 141.

7 عبد المجيد دياب، المرجع السابق، ص 141.

8 المقرئى، الخطط، ج3، ص 719.

9 حسن ظاظا، المرجع السابق، ص 203.

والعيد الرابع عيد الفطير في 15 نيسان (أفريل) يقيمون سبعة أيام لا يأكلون سوى الفطير وهي الأيام التي تخلصوا فيها من فرعون، واختلفت الفرق اليهودية حول مدة الاحتفال به فهي سبعة عند القرائين وثمانية عند الرابانيين وستة عند السامرة¹، ويأتي آخر عيد يهودي هو "عيد الأسابيع" أو عيد العنصرة أو عيد الخطاب في 6 سيوان اليهودي (ماي) وهي عندهم الأسابيع التي أنزل الله تعالى فيها على بني اسرائيل الفرائض المتضمنة الوصايا العشر المنسوبة إلى موسى عليه السلام.²

كان لليهود أعياد محدثة بخلاف أعيادهم الشرعية التي احتفلوا بها هي الأخرى.

2. الأعياد القومية (الاحتفالات العامة) في مصر وبلاد الشام:

اشترك الاحتفال بالأعياد ما بين المسلمين وغيرهم من المصريين والشاميين في عصر سلاطين المماليك، مما غلب عليها الطابع القومي فمنها ما ارتبط بشخص السلطان ومنها ما ارتبط بالذليل ومنها ما كان في أصله خاصا بأهل الذمة ولكن لم يلبث أن شاركهم المسلمون في ذلك، فتحوّلت الأعياد الدينية الخاصة بالذمين إلى أعياد قومية.³

أ. الاحتفالات السلطانية:

اهتم المماليك في كل من مصر وبلاد الشام بالاحتفال بتولية السلطان الجديد، حيث يجتمع الخليفة والقضاة والأمراء⁴ بدار العدل بالقلعة، ويجلس الخليفة وعلى رأسه طرحة سوداء مرقومة بالبياض وخلعة خضراء، ويجلس السلطان الجديد دون الخليفة ويباعه ويخلع على السلطان الخلعة السوداء ويقلده سيفاً ويهني القضاة الأربعة السلطان ويمد سماط كبير⁵ ويعلن في القلعة أمر تولية السلطان الجديد وتزين الحوانيت والأسواق وترسل المكاتبات بالبشارة بجلوس السلطان الجديد إلى الولاية⁶، وبعد ذلك يخرج السلطان إلى ظاهر القاهرة ويلبس خلعة السلطان ويدخل من باب الفتوح أو

الفصل الثاني

الحياة الاجتماعية في العصر المملوكي

1 قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين، ص 121.

2 قاسم عبده قاسم، أهل الذمة، ص 118.

3 سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري، ص 212.

4 ابن قاضي شهبة، تاريخ ابن قاضي شهبة، تج: عدنان درويش، دمشق، 1994، ج2، ص 236.

5 القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص 280.

6 نفسه، ج8، ص 242.

باب النصر راكبا، وبعد ذلك يتجه إلى قلعة الجبل وفيها يمد سماط كبير للأمراء¹، وعند وصول الخبر إلى دمشق تقرأ مبايعة السلطان الجديد بالجامع الأموي وتزين شوارع دمشق سبعة أيام.² كما يحتفل المماليك بشفاء السلطان في الديار المصرية والشامية، فيخرج موكب حافل بصحبته الأمراء فتزين له القاهرة³، وعند عودة السلطان من رحلة خارج البلاد كالشام أو الحجاز يحتفل بذلك احتفالا كبيرا ويكون الاستقبال أشد بهجة وأعظم روعة عند عودة السلطان منتصرا في الحرب.⁴

ب. وفاء النيل وكسر الخليج:

كان بلوغ النيل ستة عشر ذراع بشيرا بوفاء النهر وإيدانا ببدء الاحتفال، حيث يكون على مرحلتين الأولى تخليق المقياس⁵ والثانية كسر سد الخليج⁶، يشارك في هذه المناسبة السلطان والعامه فكان يعلق على الشباك الكبير من الجهة الشرقية من دار المقياس ستر أصفر، فيعلم الناس بالوفاء فتوقد الشموع والقناديل وتوزع الخلع ويقرأ القرآن بدار المقياس طول الليل ويحضر المغنون أيضا.⁷ وفي اليوم التالي لوفاء النيل يحتفل بكسر الخليج، ويحضره السلطان أو من يقوم مقامه من الأمراء⁸ ويمد السماط من الشواء والحلوى والفاكهة ويتخاطفه العامة، ويبدأ الاحتفال بنزول السلطان أو من ينوب عنه من قلعة الجبل وفي خدمته كبار الأمراء وخواص الدولة، ثم ينزلون إلى النهر ويركبون مراكب تزينها الأعلام وتدق الطبول وتطلق الألعاب النارية (النفوط) حتى الوصول إلى دار المقياس، ويعطي السلطان لمسؤول المقياس إناء يذاب فيه الزعفران في ماء الورد فيلقي نفسه في المقياس ويخلق عمود المقياس (يدهنه بالعطر) ويركب السلطان سفينته السلطانية ويسير إلى فم الخليج⁹ حيث يكون نائب السلطنة أو حاجب الحجاب منتظرا فوق قنطرة السد، ويتوجه السلطان

الفصل الثاني

الحياة الاجتماعية في العصر المملوكي

1 المقرئزي، الخطط، ج3، ص 184.

2 الزربا، المرجع السابق، ص 230.

3 ابن إياس، بدائع الزهور، ج2، ص 853.

4 سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري، ص 216.

5 المقياس: عمود رخام أبيض مثنى، في موضع ينحصر فيه الماء انسيابه إليه وهذا العمود مفصل إلى اثنين وعشرين ذراع. أنظر:

ابن إياس، نزهة الأمم، ص 86.

6 الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تح: حسن حبشي، مكتبة دار الكتب، 1973، ج3، ص 43.

7 قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصري، ص 43.

8 ابن حجر، المصدر السابق، ج2، ص 108.

9 قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصري، ص 44.

بفرسه إلى موقع السد الترابي ويمسك المعول ويضرب السد ثلاث ضربات دالة على ابتداء فتح الخليج، ويبدأ العمال والفلاحين بإزالة السد الترابي حتى يجري الماء في الخليج.¹

ج. الاحتفال بعيد الشهيد:

هو مهرجان سنوي ضخم يقام في 8 بشنس (ماي)، ارتبط بخرافة أن النهر لا يزيد مائه في موسم الفيضان إلا إذا ألقى فيه أصبع الشهيد الذي قيل أنه أصبح أحد القديسين لدى النصارى، حيث كان أهل مصر يخرجون على اختلاف طبقاتهم ودياناتهم للمشاركة في الاحتفال وكانت تغطي الخيام سواحل النهر وتظهر مظاهر الاحتفال من فرسان يرقصون بخيولهم وقرع الطبول، فانتشرت المعاصي والفوضى² ما اضطر الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير إلى إبطال الاحتفال بعيد الشهيد عام 702هـ/1302م.³

د. الاحتفال بعيد النيروز⁴:

يحتفل به في أول شهر توت⁵ (سبتمبر) وكان متوارثاً عن قدماء المصريين، وفي هذا اليوم تعطل الأسواق وتصنع الحلوى وكان المسلمون يشاركون فيه إلى جانب الأقباط الذين من عاداتهم إيقاد النار والتراش بالماء في الشوارع والطرق⁶، ومن خصائص هذا اليوم أنه كان يعمل في عصر المماليك موكبا (كرنفال) يجوب الشوارع ويتم جباية الأموال من الناس وإلا أهانوهم، فكانت مظاهر الفساد والفوضى تصحب الاحتفال بالعيد إلى أن أبطله السلطان الظاهر بقوق 782هـ/1380م وهدد بفرض عقوبات.⁷

الفصل الثاني

الحياة الاجتماعية في العصر المملوكي

1 قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين، ص 126.

2 قاسم عبده قاسم، أهل الذمة، ص 153.

3 ابن تغري البردي، النجوم الزاهرة، ج8، ص 202.

4 النيروز: عند أقباط مصر هو رأس السنة القبطية. أنظر: الصيرفي، المصدر السابق، ج2، ص 394.

5 شهر التوت: اسم لأحد شهور القبط في الزمن القديم مثل ياوني، طوبى... أنظر: ابن إياس، نزهة الأمم، ص 234.

6 ابن إياس، نزهة الأمم، ص 241.

7 قاسم عبده، النيل والمجتمع المصري، ص 48.

هـ. الأعياد الموسمية:

احتفل الشاميون بمواسم ارتبطت بالمناخ والانتقال من موسم لآخر كبداية الربيع وزيارة القرى في الأرياف والبساتين مع إعداد الأطعمة التي تستخدم في الفصول التالية مثل صناعة البرغل بعد الحصاد أو تجفيف الفواكه مثل العنب في نهاية الصيف وغيرها¹، ومن أمثلة هذه الأعياد عيد الجوزة وعيد الزبيب.²

¹ إبراهيم الزعرور، المرجع السابق، ص 193.
² الزربا، المرجع السابق، ص 388.

المبحث الثالث: الألبسة والأطعمة المملوكية.

1) الألبسة.

تطور الزي في عهد المماليك تطورا ملحوظا، في بادئ الأمر كان الزي المملوكي متأثرا بالذوق الآسيوي الخشن ثم مالت أزيائهم نحو الرقة والرفاهية، وأصبحت أكثر تنوعا في أشكالها وألوانها، وتخصص كل عنصر من عناصر المجتمع بزي معين¹ وكان لكل طائفة قماش لا يوافق طائفة أخرى حتى أنه إذا لبس أحد من طائفة قماش أحد من طائفة غيرها خرج عن الهدام وسار منسوبا إلى تلك الطائفة، قيل أنه ورد في أيام الملك برقوق قاصد من تمرلند فأنزل بدار الضيافة وبها مكان يشرف على المشرع فصار ينظر من هناك فرأى أقواما وخلقا كثيرا مختلف الهيئات والملبوس من ذلك وقال نحن في بلادنا ملبوس السلطان والأمير والخدم والفلاحين هيئة واحدة.² وسنقوم بذكر أبرز ما كان يرتديه المجتمع المملوكي من الملابس متمثلا كما يأتي:

أ. ملابس السلطان وخاصته والمماليك:

تميز سلاطين المماليك بارتداء أنواع مختلفة من الملابس، فكان لدى كل سلطان موظف يختار له ما يلبسه وما يناسب الحفلات أو الموكب أو رحلات الصيد³، ويسمى هذا الموظف الجمدار⁴، ويسمى مكان وضع لباسه الطشتخاناه⁵ وكان السلطان إذا خلع رداءه مرة لا يلبسه مرة ثانية مطلقا، حيث توضع ملابسه المستعملة في مكان خاص وقد ينعم بها على أمرائه وخاصته⁶.

¹ نهال محمود نفوري، الأزياء المملوكية من خلال المصادر التاريخية، مجلة مهد الحضارات، العدد 17، 18، جامعه دمشق، 2013، ص 126.

² ابن شاهين الظاهري، المصدر السابق، ص 88.

³ نفسه، ص 84.

⁴ الجمدار: أو الجامادار هو الذي يتصدى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه، وأصل اللفظة جامادار فارسي بمعنى اللباس داخل البيت ومنها البيجاما. أنظر: محمد أحمد دهمان، المرجع السابق، ص 54.

⁵ الطشتخاناه: بيت الطشت، صحن كبير لحمل الطعام أو الماء والطشتخاناه هو المكان المخصص لوضع الطشتوت اللازمة لغسل الأيدي والقماش وغيرها. أنظر: محمد أحمد دهمان، المرجع نفسه، ص 108.

⁶ نهال محمود نفوري، المرجع السابق، ص 129.

كان السلطان يلبس لكل مناسبة زيا، ففي حفلة تتصيب السلطانية كان يلبس عمامة سوداء مع حزام من شريط مذهب معلق به سيف بداوي أما عن اللون الأسود فهوشارة الولاء للخلافة العباسية، ويرتدي ملابس رجل دين أصيل أي ليس لها طابع عسكري.¹

وقد شرح المقرئزي² ملابس السلطان ببيرس الأول التي أرسلها إليه الخليفة العباسي في حفلة تتصيبه وتمثلت في عمامة سوداء والجببة³ والدرّاعة⁴ والفرجبة⁵.

أما في المواكب السلطانية كان يرتدي زي أمير عظيم، فكان⁶ عليه الشاش والقماش وكاملية مخمل أحمر ولم يلبس الكلفتة⁷ بل لبس تخفيفة صغيرة مدورة⁸ والتخفيفة الكبيرة كان يلبسها في المناسبات الخاصة وكانت تستخدم في مقام التاج عند السلاطين المماليك، وكان في الحرب يرتدي نفس الزي المخصص للميدان والذي يرتديه أمراؤه⁹ وكان لا يلبس عمامة وإنما يلبس خوذة.¹⁰

وكان السلاطين يلبسون في الصيف الملابس الخفيفة البيضاء أما في الشتاء فيلبسون الجوخ (الصوف) ويرتدون عمامة بيضاء تعبيرا عن قوة وشدة بأسهم¹¹، ومن مكملات الأزياء السلطانية الكثير من الأحجار الكريمة والمجوهرات والخواتم والأساور والسيوف بأشكال مختلفة¹². أما الخاصكية¹³ فقد لبسوا أحسن الملابس فكان يغلب على زيهم اللبس المزخرف.¹⁴

1 ماير، الملابس المملوكية، تر: صالح الشيني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص 29-30.

2 نهال محمود نفوري، المرجع السابق، ص 128

3 الجببة: ملبوس يرقى إلى العهود الإسلامية الأولى وكانت من ملابس الرسول صلى الله عليه وسلم. أنظر: رينهارت دوزي، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، الدار العربية للموضوعات، 1433هـ/2012م، ص 91.

4 الدراعة: لباس يميز الوزراء عن بقية ضباط القسم أو العدالة وهي ثوب مفتوح من الأمام على القلب ومزررة بأزرار. أنظر: دوزي، المعجم المفصل بأسماء الملابس، ص 157.

5 الفرجبة: ثوب فضفاض هفهاف يعمل من الجوخ عادة وله كمان واسعان طويلان يتجاوزان قليلا أطراف الأصابع. أنظر: نهال محمود نفوري، المرجع السابق، ص 128.

6 ماير، المرجع السابق، ص 30.

7 الكلفتة: طاقيه تؤلف هيكل العمامة لم يكن يلبسها إلا رجال الطبقة الرفيعة. أنظر: دوزي، المعجم المفصل بأسماء الملابس، ص 342-343.

8 ابن إياس، المصدر السابق، ج4، ص 418-423.

9 ماير، المرجع السابق، ص 37.

10 نهال محمود نفوري، المرجع السابق، ص 129.

11 ابن شاهين الظاهري، المصدر السابق، ص 86.

12 ماير، المرجع السابق، ص 130.

13 الخاصكية: نوع من المماليك السلطانية يختارهم السلطان من المماليك الأجلاب الذين دخلوا في خدمته صغارا ويجعلهم من حرصه الخاص. أنظر: محمد أحمد دهمان، المرجع السابق، ص 66.

14 نهال محمود نفوري، المرجع السابق، ص 135.

أما المماليك كان زيهم يختلف من طائفة لأخرى حتى زاد على المائة¹، وذلك على عكس المغول المعاصرين الذين كان لبس سلطانهم أو أميرهم أو خدمهم واحداً²،

وزيهم أساساً يميزه الأقبية³ النثرية والتكلاوات⁴ فوقها، ثم القباء الإسلامي فوق ذلك يشد عليه السيف من جهة اليسار والصولق والكلك من جهة اليمين، وفي الصيف قماش لباسهم من فوقاني الأبيض أما زمن الشتاء كانت فوقانياتهم ملونة من الصوف النفيس والحرير الفائق، أما في أرجلهم في الصيف لبسوا الخفاف البيض العلوية وفي الشتاء لبسوا الخفاف الصفر من الأديم الطائفي⁵، وكان زي الأمراء يتميز عن زي بقية العساكر فكان أكثر فخامة وغنى، ويعتبر الشربوش⁶ بصفة خاصة الطابع المميز للباس الأمير⁷.

ب. ملابس أرباب الوظائف من غير المماليك:

فعن زي الوزير فهو عبارة عن ثوبين فوقاني من الكمخة البيضاء وتحتاني من الكمخة الخضراء، وكان يضع حول الرقبة طرحة أما على الرأس مثل عمامة الكتاب⁸.

أما رجال الدين تميزوا بلبس العمامة الكبيرة لذلك سمو بـ "أرباب العمائم" أو "المتعّمون"⁹ ويلبسون ملابس من الصوف وليس الحرير بدون طراز وتتميز بلونها الأسود في الغالب¹⁰.

أما زي مشايخ الصوفية فكان الدلق وهو لباس مشبع من الأكمام وإن كانت غير طويلة وغير سابلة على القدمين¹¹ وكانت أغلب ملابسهم من الصوف لما فيه من التقشف والبعد عن النعم¹².

1 ابن شاهين الظاهري، المصدر السابق، ص 88.

2 المقرئزي، الخطط، ج3، ص 160.

3 الأقبية: لباس خارجي للرجال فارسية الأصل يطوى تحت الإبط بصورة منحرفة. أنظر: دوزي، المعجم المفصل بأسماء الملابس، ص 312.

4 تكلاوات: تكلاوة، ضرب من اللباس يرتدي في الهند وفي مصر من قبل الأمراء. أنظر: دوزي، المعجم المفصل بأسماء الملابس، ص 91.

5 القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص 40، 41.

6 الشربوش: شيء يشبه التاج كأنه مثل عند الرأس من غير العمامة. أنظر: المقرئزي، الخطط، ج2، ص 105.

7 عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك، ص 79-80.

8 نفسه، ص 80-81.

9 أرباب العمائم: أصحاب الوظائف من الفقهاء والعلماء والأدباء. أنظر: مفيد الزبيدي، المرجع السابق، ص 223.

10 السيوطي، المصدر السابق، ج2، ص 101.

11 القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص 43.

12 ابن خلدون، المصدر السابق، ص 522.

أما القضاة فهم بالضرورة يلبسون السواد إلا في الصيف فيلبسون لباسا أبيضاً¹ ومنهم من يرسل بين كتفيه ذؤابة تلحق قربوس سرجه إذا ركب، ويميز القضاة الشافعي والحنفي بلبس طرحة تستر عمامته وتنسدل على ظهره، وليس فيهم من يلبس الحرير ولا يلبسون الملون إلا في بيوتهم²، وذكر ابن بطوطة³ قاض مصري يلبس عباءة صوف خشنة وعمامة صوف سوداء، أما الخطباء فقد كانت ملابسهم دلق مدور أسود وشاش وطرحة سوداء.⁴

واختص خطيب الجمعة بلباس معين يسمى البيدق وهو عبارة عن عباءة سوداء لها طرطور⁵ يلبس فوق عمامة سوداء ويحمل سيفاً بيده⁶، أما الكتاب فكانت ملابسهم العمام المدورة الصغيرة المصنوعة من الحرير⁷ ويلبسون على أجسامهم ثوباً فوقاني من الحرير وتحتاني أخضر اللون، ثم صار الكتاب يلبسون جبة لها أكمام واسعة وعليها رسومات.⁸

ج. لباس العامة:

ملابس الأفراد من الرجال في عصر المماليك تباينت واختلفت حسب مكانة الشخص ومركزه الاجتماعي حتى أصبح من السهل على الزائر يمر أن يحكم على كل شخص يراه ويحدد بسهولة طبقته الاجتماعية وحرفته أو عمله وديانته⁹، وكانت ملابس الفلاحين تختلف عن ملابس أهل القاهرة في ذلك العصر، فكانت تتكون من الجبة وهي عبارة عن كساء صوفي غامق اللون بأكمام واسعة وعباءة عريضة يستعملها الفلاح كغطاء في الشتاء، وفي قدميه يلبس الجذوة وهي حذاء يصنع من الجلد أما حذاء الوطا يلبسه في الأعياد.¹⁰

1 السيوطي، المصدر السابق، ج2، ص 101.

2 القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص 42.

3 المصدر السابق، ج1، ص 35.

4 ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج3، ص 194.

5 الطرطور: هي فلتسوة طويلة تلبس على الرأس. أنظر: بطرس البستاني، محيط المحيط قاموس مطول للغة العربية، مكتبة لبنان ساحة رياض الصلح، بيروت، 1987، ص 548.

6 ماير، المرجع السابق، ص 96، 97.

7 السخاوي شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الجيل، بيروت، ج1، ص 112.

8 القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص 45.

9 سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري، ص 311.

10 مجدي عبد الرشيد بحر، المرجع السابق، ص 240.

أما النساء لبسن ما يسمى "بالبهطلة" وهو قميص له أكمام واسعة تبلغ ثلاثة أذرع وكذلك "البغالطيق" وهي الأخرى قمصان قصيرة الكم أو من غير كم وإن كان يلبس فوقها "الإزار" وهو ثوب من الحرير يغطي كل الجسم¹، كما استعملن العصابة كغطاء للرأس وكانت مزركشة مزينة بزخارف جميلة ومطرزة ومحلاة بالأحجار الكريمة²، أما خفافهن فمن خط الحرير، أما الصبيان والبنات عرفوا بلبس الكوافي والطواقي.³

وبعد إخفاء ملامح المرأة شرطا أساسيا للباس المرأة الريفية المملوكية، فتضع على رأسها خرقة وعلى وجهها نقابا وتلبس قميصا مخططا وقطنيا وفضفاضا واسع الأكمام وسروالا طويلا وواسعا وتزين بالوشم في الوجه.⁴

أما أهل الذمة فرضت عليهم في فترات متقطعة من عصر المماليك قيود شديدة في الملابس التزموها ولم يتخطوها، من ذلك اشترط في ثيابهم أن تكون قصيرة وغير طويلة وفرض عليهم تصغير العمائم⁵، وأمر بمصر والشام اليهود بلبس العمائم الصفرة والنصارى بلبس الزرق والسامرة بلبس الحمر، لكن فيما بعد في عهد قالون أعيد أهل الذمة إلى لبس العمائم البيض.⁶

1 المقريري، الخطط، ج2، ص 177-178.

2 عبد المنعم ماجد، نظام دولة سلاطين المماليك، ص 87.

3 المقريري، الخطط، ج2، ص 104، 105.

4 عامر نجيب موسى ناصر، المرجع السابق، ص 346.

5 سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري، ص 238.

6 السيوطي، المصدر السابق، ج2 ص 300.

2) الأطعمة والأشربة.

في ذلك العصر لم يكن الناس يطهون طعامهم في منازلهم، بل اعتادت الغالبية العظمى منهم شراء ما يحتاجون إليه من الأطعمة المطهية التي تفيض بها الأسواق والطرقات.¹

ومن عوائد المجتمع المصري آنذاك تناول وجبتي طعام في اليوم والحرص على مراعاة الآداب الإسلامية في تناولهم الطعام، حيث يبتدئون بالبسملة وينتهون بالحمد ويأكلون الطعام بثلاثة أصابع مع مراعاة عدم التكلم عند الأكل²، ويراعى غسل الأيدي قبل الأكل وبعده وأحيانا يكون ذلك بماء الورد ثم تتشف الأيدي بالمناديل والقوط الحرير³، وكان رب الأسرة لا يشارك أهله الطعام من وعاء واحد بل كان له طعام خاص به وزيدية خاصة به وكوز خاص به، وحرصوا على أن يكون خادم خلف الشخص أثناء الأكل لينش عنه الذباب.⁴

أما سكان بلاد الشام فقد شاع عندهم استخدام الأفران والطوابين التي تحفر في الأرض المفروشة بالحصى وتوقد بالزبل من حولها وكانت إذا احتمرت توضع فيها الأرغفة، ومن أنواع الأطعمة التي وجدت في هذه الفترة ببلاد الشام صناعة المخللات التي تؤكل مع وجبات الدجاج والسّمك وغيرها من أصناف الطعام.⁵

وكانت أطعمة عرب الشام من التمر والدقيق ويسمونها الحريرة ومن طعامهم البسيصة والمنسف وهي أكلة شعبية في البلاد الشامية تصنع من الأرز واللحم المطبوخ باللبن الرائب ويعرف أيضا بالشاكرية.⁶

¹ سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري، ص 130.

² رشا فاضل كاظم الكعبي، المرجع السابق، ص 137.

³ ابن الحاج، أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدري الفاسي المالكي (ت 737هـ)، المدخل، مكتبة دار التراث، القاهرة، ج1، دبت، ص 232.

⁴ نفسه، ص 216، 217.

⁵ تسنيم زريق جمعة أبو شلوف، الأوضاع الاجتماعية في فلسطين في العهد المملوكي (648-923هـ/1250-1517م)، رسالة

مقدمة لنيل درجة الماجستير، قسم التاريخ والآثار، كلية الآداب، جامعة غزة، 2009، ص 214.

⁶ يوسف درويش غوانمة، التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر المملوكي، دار الفكر للنشر والتوزيع عمان ط 2 1982، ص

152-153.

كانت تسمى الوليمة لطعام العرس والأعدار لطعام الختان والخرس لطعام الولادة والوكيزة لطعام الاحتفال ببناء الدور والمأدبة للدعوات¹، وقد اختلفت الأطعمة في المجتمع المصري من منطقة إلى أخرى بحسب الموارد الغذائية والوضع الاقتصادي لكل منطقة، ومن أهم أسماء الأطعمة آنذاك: مأمونية، سفرجلية، رمانية، شيشن، رومية، بورانية، فقاعية، رشتا، بامية، كرمب بسبعة ألوان، نرجسية وغيرها من الأطعمة.²

كما اشتهرت مصر في العصر المملوكي بصناعة الخبز وكان الخباز يصنع الخبز ليبيعه في الأسواق، أما الفرن فهو الذي يخبز خبز البيوت لقاء أجر معلوم³ وذكر المقرئ⁴ أنه كان في أول الحسينية فرن تخبز فيها يوميا نحو سبع آلاف رغيف.

اشتهرت الأرياف المصرية في العصر المملوكي بالإكثار من طبخ طعام سمي "بالكشك"⁵ و"البيسار"⁶ وقيل أن مأكول أهل الصعيد ستة أشهر "ملوخية" وستة أشهر "ويكة"⁷، ومن أشهر أكالات الفلاحين "البليلة"، "مفروكة اللبن" كما استهلكوا البقول والخضروات على اختلاف أنواعها، أما اللحوم فاستهلكوا لحوم الطيور الداجنة أما اللحم الحيواني لا يأكلونه إلا من العام إلى العام، كما استهلكوا لحم السمك بكثرة سيما بعد انحصار فيضان النيل وصيدته بالشباك.⁸

ويغلب على أغذية الوجه البحري "القلقاس"⁹ و"الجلبان" و"الأرز باللبن" ويعملون "مفروكة اللبن" و"السمك المملح الطري".¹⁰

1 عبد المنعم ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ط7، مكتبة أنجلو المصرية، القاهرة، 1997، ص 141.

2 ابن شاهين الظاهري، المصدر السابق، ص 125.

3 ابن الحاج، المصدر السابق، ج3، ص 182.

4 الخطط، ج2، ص 105.

5 الكشك: طعام مركب من القمح واللبن. أنظر: مجدي عبد الرشيد بحر، المرجع السابق، ص 234.

6 البيسار: فول مدشوش مع ملوخية جافة. أنظر: مجدي عبد الرشيد بحر، المرجع السابق، ص 234.

7 رشا فاضل كاظم الكعبي، المرجع السابق، ص 245.

8 مجدي عبد الرشيد بحر، المرجع السابق، ص 235.

9 القلقاس: نبات له قرون كقرون الملوخية. أنظر: عامر نجيب موسى ناصر، المرجع السابق، ص 344.

10 عامر نجيب، المرجع نفسه، ص 344-345.

كما اشتهرت مصر المملوكية بصناعة الحلويات، حيث ذكر ابن الأخوة¹ اشتهارها بصناعة ثلاثة وخمسين نوعا من الحلوى، وأحصى ابن دقماق² ثمانية وخمسين مطبخا للسكر في الفسطاط وحدها، وكانت تصنع تماثيل من الحلوى على هيئة حيوانات مختلفة وقد عرفت تلك التماثيل باسم العلاليق (مفردها علاقة) لأنها تعلق بخيوط على أبواب الحوانيت وكان وزن كل منها يتراوح ما بين ربع رطل وعشرة أرطال، يشتريها الناس لأطفالهم في مواسم رمضان وعاشوراء وغيرها، كانت أسواق القاهرة والأقاليم تمتلئ بهذا الصنف من الحلوى³، ومن أشهر الحلويات آنذاك أيضا "الزلابية" كان البعض يحضرون صانع الزلابية ليبيت عندهم ليجهز الزلابية قبل طلوع النهار.⁴

نذكر أيضا حلوى "الصابونية"⁵ و"القطايف"⁶ وتتحد أصناف الحلويات في المناطق الريفية "بالكنافة" و"المصبوبة" التي تصنع من دقيق الأرز أو الحنطة⁷، كما اشتهرت مصر كلها وبلاد الوجه القبلي على وجه الخصوص بالحلوى التي تسمى البندة التي لا تصنع إلا في مصر من دقيق القمح والعسل⁸، وقد أشار ابن بطوطة⁹ أيضا إلى نوع من الحلويات تصنع في الشام في عصر المماليك وهي المربى المصنوع من العنب، ويصنع الدبس ويوضع في الحلوى الفستق واللوز ويسمونها "حلواء بالملين" وتسمى أيضا "جلد الفرس".

وامتاز عصر المماليك بكثرة الولائم المنزلية فكل مناسبة من مناسبات الفرح مقرونه بوليمة للأهل والأصدقاء، وعند تقديم ألوان الطعام اتبع الناس في ذلك العصر النظام نفسه الذي نتبعه اليوم فيقدم الطعام أولا ثم الحلوى من بعده وأخيرا الفاكهة.¹⁰

1 المصدر السابق، ص، 181.

2 المصدر السابق، ص 41.

3 قاسم عبده قاسم، أسواق مصر في عصر سلاطين المماليك، ص 109.

4 ابن الحاج، المصدر السابق، ص 49.

5 الصابونية: نوع من الحلوى يصنع من دقيق المحمص بالسمن يضاف إليه السكر واللين ويعمل منه قوالب مثل الصابون. أنظر: ابن الأخوة محمد بن أحمد القرش (ت 729هـ)، معالم القرية في أحكام الحسبة، تح: محمد محمود شعبان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1976، المصدر السابق، ص 181.

6 القطايف: تصنع من دقيق الحنطة من دهن اللوز يضاف إليها بعد الطبخ وترفع من النار لتجمد. أنظر: ابن الأخوة، المصدر السابق، ص 182.

7 عامر نجيب، المرجع السابق، ص 34.

8 مجدي عبد الرشيد بحر، المرجع السابق، ص 237.

9 المصدر السابق، ج1، ص 100.

10 سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري، ص 131.

أما الولائم التي تقام عند السلطان سميت بالأسمطة السلطانية، فكانت الأسمطة تقام يوميا لسكان القلعة كما تقام أسمطة عظيمة في أيام المواكب مثل سماط عيد الفطر¹، وقد خصت للمطبخ السلطاني أطعمة مفتخرة وتعاضم مصروف الحوائج خاناه² إلا لما توقفت أحوال الدولة³، فكان ثمن اللحم وحده يبلغ ثلاثين ألف درهم مع كل يوم عدا ما كان يصرف على ألوان الطعام الأخرى⁴، أما موضع الأشرية في العصر السلطاني سمي بالمشربخاناه⁵.

كان المماليك بطبعهم يقبلون على الشراب حتى أصبح ذلك من عاداتهم وحتى السلاطين كانوا يشربون الخمر مع أمرائهم، وعرف من أنواع المشروبات "القمز" أو "القزاقمز"⁶ و"المزر"⁷. وكانت مجالس الشراب مرتبطة في غالب الأمر بأسباب الطرب من غناء وموسيقى ورقص⁸. واشتهر تناول شراب العسل في المجتمع المصري ويتم عمله عند زيادة النيل وهذا الشراب معروف بلذته وخمر رائحته بالإضافة إلى شراب الليمون وشراب السكر ومشروب التمر⁹.

1 عبد المنعم ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ص 117.

2 الحوائج خاناه: أو بيت الحوائج كان يحفظ ما يصرف من هذه الأصناف للدور السلطانية. أنظر: علي ابراهيم حسن، المرجع السابق، ص 204.

3 المقريري، الخطط، ج2، ص 106.

4 القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص 16.

5 المشربخاناه: التي توضع بها الأشرية والسكر والحلوى والعقاقير والفواكه وما أشبه ذلك. أنظر: ابن شاهين الظاهري، المصدر السابق، ص 124.

6 القمز: عبارة عن لبن الفرس المحمض وقد عرف المماليك شربه في موطنهم الأصلي. أنظر: لطفي أحمد نصار، وسائل الترفيه في عصر سلاطين المماليك في مصر، الهيئة المصرية لصناعة الكتاب، 1999، ص 115.

7 المزر: شراب يتخذ من الذرة. أنظر: لطفي أحمد نصار، نفسه.

8 نفسه، ص 125.

9 عامر نجيب، المرجع السابق، ص 140.

المبحث الرابع: المرافق الاجتماعية.

يعتبر عصر المماليك العصر الذهبي في تاريخ العمارة الإسلامية بسبب تنافس السلاطين الدولة على إقامة المنشآت المعمارية¹ والتي تنوعت ما بين الدينية والمدنية، وفيما يلي بعض من تلك النماذج:

1. الجوامع والمساجد:

استلزم النشاط الديني في عصر المماليك في مصر وبلاد الشام الإكثار من تشييد الجوامع والمساجد وترميم ما تهدم منها، ولم يقتصر دورها على العبادة فقط وإنما استخدمت لأغراض أخرى كالتدريس²، من أمثلة ذلك:

أ. جامع الظاهر بيبرس:

يقع هذا الجامع بميدان الظاهر بالقاهرة، أمر بتشبيده السلطان ركن الدين بيبرس البندقداري سنة 665هـ/1266م، وحرص أن يكون بابه مثل باب المدرسة الظاهرية وأن يكون محرابه قبة على قدر قبة الشافعي رحمه الله، وكتب بإحضار الرخام من سائر الولايات، فرغ من بنائه في شوال سنة 667هـ/1268م.³

ب. جامع الناصر محمد بن قلاوون:

شيده الناصر بن قلاوون في مصر سنة 712هـ/1312م، وهو من أحسن الجوامع وأكثرها زخرفة⁴، كان الناصر محبا للعمارة فكان ينفق عليها المائة ألف درهم فإذا رأى منها ما لا يعجبه هدمها كلها وجددها⁵، حيث عمر في أيام الناصر (698-708هـ/1298-1308م) بمصر وحدها أربعين جامعا.⁶

1 ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 62.

2 سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري، ص 177.

3 أحمد عبد الرزاق أحمد، العمارة الإسلامية في مصر منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر المملوكي، دار الفكر العربي، القاهرة، 2009، ص 224.

4 السيوطي، المصدر السابق، ج2، ص 237.

5 ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج9، ص 175.

6 ابن قاضي شهبة، المصدر السابق، ص 193.

ج. مسجد الناصر حسن:

أعظم المساجد الإسلامية في زمانه استغرق بنائه ثلاث سنوات¹، بدأ الناصر حسن في بناء المسجد عقب عودته للسلطنة سنة 757هـ/1356م لكن قتل قبل الانتهاء منه وأكمّله أحد مماليكه، حيث بلغت تكلفة إنشائه حوالي مليون دينار جمعها الناصر حسن.²

د. الجامع الكبير:

بناه السلطان صلاح الدين خليل الأشرفي ابن السلطان المنصور سيف الدين قلاوون سنة 693هـ/1294م في طرابلس، يطلق عليه أهالي طرابلس اسم الجامع المنصوري وهو خطأ لأن المنصور قلاوون هو أبو الأشرفي مشيد الجامع.³

هـ. جامع الطنبغا⁴ الصالحي:

بناه الطنبغا الصالحي نائب حلب ثم دمشق بميدان الأسود، وهو أول جامع بني بحلب بعد الجامع الكبير⁵، عمارته متقنة وتم انشائه سنة 718هـ/1318م.⁶

و. جامع الحيات أو جامع الدهشة:

بناه الملك المؤيد سنة 727هـ/1327م في حماة، بني لحرمة من الجهة الشرقية شباكين بينهما عمود كبير من الرخام على شكل أفاعي ملتفة وهذا هو سبب تسميته بهذا الاسم، كانت به كتب موقوفة يبلغ عددها سبعة آلاف مجلد.⁷

¹ المقرئزي، الخطط، ج3، ص 320.

² هاني حمزة، مصر المملوكية (1250/658-1517/923)، دار العين للنشر، الإسكندرية، 2012، ص 280.

³ علي كرد، المرجع السابق، ص 53.

⁴ الطنبغا الصالحي: الأشرف العاي العلائي الطنبغا الناصري نائب حلب أيام السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون (698-

708هـ/1298-1308م) أنظر: ابن الغزي كامل بن حسين بن محمد بن مصطفى الحلبي، نهر الذهب في تاريخ حلب، المطبعة

المارونية، حلب، 1923، ج2، ص 376.

⁵ ابن الشحنة، المصدر السابق، ص 72.

⁶ ابن الغزي، المرجع السابق، ص 376.

⁷ علي كرد، المرجع السابق، ص 61.

2. الخوانق والربط¹ والزوايا²:

نتيجة انتشار التصوف في عصر المماليك كثر عدد البيوت الصوفية من خوانق وربط والزوايا.

أ. خانقاه بيبرس الجاشنكير:

وتعرف باسم الخانقاه البيبرسية أو خانقاه الركنية، كان موقعها جزء من دار الوزارة الكبرى الفاطمية وهي أجل خانقاه بالقاهرة بنيانا وأوسعها مقدارا وأتقنها صنعة، بناها المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير قبل أن يلي السلطنة وهو أمير فبدأ في بنائها سنة 706هـ/1306م وأتمها سنة 709هـ/1309م، وبنى بجانبها رباطا كبيرا يوصل إليه من داخلها وقرر بها أربعمئة صوفي وبالرباط مائة من الجنود.³

ب. خانقاه قوصون⁴ بالقرافة⁵:

بنيت سنة 736هـ/1335م، وأول من ولي مشيختها الشمسي محمود الأصفهاني⁶ الإمام المشهور، وكانت أعظم جهات البر وأعظمها خيرا، تلاثت سنة 806هـ/1403م.⁷

ج. خانقاه الظاهر برقوق:

أنشأها السلطان الظاهر برقوق سنة 786هـ/1384م بخط بين القصرين، تعتبر أول المنشآت المعمارية في دولة المماليك الجراكسة، وكان موضعه قبل إنشائها يعرف بخان الذكاة ويتوج الواجهة طرازاً من الكتابة عليها اسم المنشئ وألقابه وتاريخ الفراغ من عمارتها سنة 788هـ/1376م.⁸

¹ الربط: مفرد رباط تعني ملازمة ثغور العدو وتحولت من مفهومها العسكري المرتبط بالجهاد إلى أحد بيوت الصوفية أنظر: المقرئزي، الخطط، ج3، ص 600، 601.

² الزاوية: في الأصل هي مبنى أو مسجد صغير للصلاة والعبادة لكن تطور لفظه فأصبح يقصد به الخنقة أو منزل الصوفية. أنظر: سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري، ص 187.

³ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج2، ص 226.

⁴ قوصون: الأمير سيف الدين حضر من بلاد بركة إلى مصر مع زوجة الملك الناصر محمد بن قلاوون، أعجب به السلطان وصار من المماليك السلطانية أنظر: المقرئزي، الخطط، ج3، ص 297.

⁵ القرافة: مقبرة بمصر مشهورة، مسماة بقبيلة من المغافر يقال لهم بني قرافة أنظر: المقرئزي، الخطط، ج1، ص 646.

⁶ محمد بن محمود بن محمد بن عباد الكافي: العلامة الأصولي عاش في بلاد الشام ومصر، كان عارفاً بأصول الفقه وعين قاض على قوص ثم الكرك وولي تدريس المذهب الشافعي. أنظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، تح: أحمد الأرنبوطي ومصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1420هـ/2000م، ج5، ص 12.

⁷ السيوطي، المصدر السابق، ج2، ص 266.

⁸ كمال الدين سماح، العمارة الإسلامية في مصر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1987، ص 94.

د. رباط الفخري:

بناه الأمير عز الدين أيبك الفخري أحد أمراء الملك الظاهر بيبرس.

هـ. رباط البغدادية:

بنته ابنة الظاهر بيبرس سنة 684هـ/1285م للشيخة الصالحة زينب ابنة أبي البركات المعروفة ببنت البغدادية، كانت تعلم نساء دمشق ومصر وصار بعدها كل من قام بمشيخة هذا الرباط من النساء يقال لها البغدادية¹، كان هذا الرباط إلى جانب تعليم النساء ملجأ للمطلقات أو من هجرهن أزواجهن أو مودع للأرامل.²

و. رباط الآثار:

عمره صاحب تاج الدين³، سمي بهذا الاسم لأنه يقال أن به آثار من الرسول صلى الله عليه وسلم، يأتي إليه الناس للتبرك كما تعقد فيه الاجتماعات لصالح منافع السكان خاصة وقت المحن والأزمات.⁴

ز. زاوية الجاكي:

نسبة إلى الشيخ حسن ابراهيم بن علي الجاكي، كان الناس يتبركون بزيارة قبره ويحملون النذور إليه ويزعمون أن دعائه لا يرد وكل هذا بدعة.⁵

عرفت مدن بلاد الشام الكبرى انتشارا واسعا للخوانق والربط والزوايا في عصر المماليك منذ تأسيس الدولة، فمثلا مدينة دمشق لوحدها بها أربع وأربعون بيتا للصوفية⁶، ومع نهاية هذا العصر

¹ المقرئزي، الخطط، ج3، ص 602.

² سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري، ص 187.

³ أبو عبد الله بن الصاحب فخر الدين: ابن الوزير بهاء الدين ابن حنا، محدث بدمشق ومصر من عظماء عصره، اشترى الآثار النبوية وهي قطعة من العنزة ومزود ومخصف وملقط وجعلها مكانه بالمعشوق في مصر. أنظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، تح: أحمد الأرناؤوط وتلاكي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2000، ج1، ص 217.

⁴ المقرئزي، الخطط، ج3، ص 606.

⁵ نفسه، ص 621.

⁶ الأربلي، مدارس دمشق وروابطها وجوامعها وحماماتها، تح: محمد أحمد دهمان، مطبعة الشرقي، دمشق، 1366هـ/1947م، ص

زاد عددها إلى ستة وتسعين بيتاً وكذلك الحال بالنسبة لحلب وبيت المقدس وحماة وطرابلس¹، ومن أمثلة ذلك:

ح. خانقاه الباسطية:

أنشأها القاضي زين الدين عبد الباسطين خليل ناظر الجيوش الإسلامية في دمشق، وأوقفها السلطان الأشرف برسباي سنة 836هـ/1433م، بعدما جردها وكان بينهما علاقة وطيدة، كاتن هذه الخانقاه ملجأ للفقراء والمساكين ومركز يرتاح به الحجاج المصريين والشاميين².

ط. خانقاه العزية:

تقع بالجرس الأبيض على نهر ثورا بصالحية دمشق، أوقفها الأمير عز الدين أيدير الظاهري نائب دمشق سنة 696هـ/1296م.³

ي. رباط التكريتي:

أنشأه محمد بن علي بن سويد التكريتي الناصري سنة 670هـ/1271م، كان تاجراً وصاحب أموال كثيرة وذو مكانة عظيمة لدى الملوك.⁴

ك. رباط علاء الدين البصير:

أقدم الربط بمدينة القدس أنشأه الأمير علاء الدين أيديغدي⁵ الذي كان ناظر الحرمين الشريفين سنة 666هـ/1267م.⁶

¹ مبارك محمد سالم الطراونة، المرجع السابق، ص 136.

² عبد القادر بدران، منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، دمشق، 1379هـ، ص 273.

³ نفسه، ص 283.

⁴ محمد كرد علي، غوطة دمشق، مطبعة الشرقي، دمشق، 1368هـ/1949م، ص 157.

⁵ علاء الدين أيديغدي: بن عبد الله الصالحي النجمي، من كبار أمراء القدس وناظر الحرمين أيام الظاهر بيبرس 659-676هـ/1260-1277م، والمنصور قلاوون 678-689هـ/1279-1280م، توفي سنة 693هـ/1263م. أنظر: الحنبلي، المصدر السابق، ج2، ص 271.

⁶ نفسه، ص 43.

ل. زاوية ابن داود:

أكبر الزوايا الصالحية، كان بها خزان ماء ومسجد وأماكن للفقراء ومكتبة وموضع خاص بالنساء، كانت تعقد بها حلقات الذكر ليلة الخميس من كل أسبوع.¹

ومع أن الأساس في إنشاء الزوايا هو الاختلاء للصلاة والتعبد وتقديم الطعام للواردين إليها وبمن وجد فيها من الصالحين بما يلقيه من دروس، إلا أن اتباع طرق الصوفية أدخل عليها البدع.²

وقد اهتم سلاطين المماليك وأمراؤهم في مصر والشام ببيوت الصوفية، فشيّدوا منها الكثير وحبسوا عليها الأوقاف³، حيث قال ابن بطوطة⁴ في كتابه الرحلة أن الأمراء يتنافسون في بناء الزوايا وكل زاوية لطائفة معينة ولها شيخ وحارس كما أن لفظ الزوايا ينطبق مع الخوانق.

وهكذا نجد أن الخانقاه والربط والزوايا تشابهت معانيها في مصر في العصر المملوكي.⁵

3. المدارس:

كان من المعتاد في العصر المملوكي أن تكون المدارس من آثار سلاطين وأمراء المماليك، حيث بنو ما ملأ الأخطاط وشحنها على حد قول القلقشندي.⁶

أ. المدرسة الظاهرية:

أسسها السلطان الظاهر بيبرس البندقداري سنة 660هـ/1262م على أنقاض قاعة الخيم، إحدى قاعات القصر الفاطمي الكبير بجانب المدرسة الصالحية، وأوقف لها أوقافا وأمر ألا يستعمل فيها أحد بغير أجره وألا ينتقص من أجرته شيء، ودعا العلماء والفقهاء للاجتماع بها فجلس أتباع

¹ نقولا زياده، دمشق في عصر المماليك، مكتبة لبنان، 1966م، ص 128.

² مجدي عبد الرشيد بحر، المرجع السابق، ص 277.

³ سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري، ص 188.

⁴ المصدر السابق، ص 56.

⁵ سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري، ص 187.

⁶ صبح الأعشى، ج3، ص 367.

المذهب الشافعي بالإيوان القبلي والحنفي بالإيوان البحري وأهل الحديث بالشرقي وجعل لكل منها مدرس.¹

حظت المدرسة بعناية السلطان بيبرس، حيث ألحق بها العديد من الكتب وبنى بجانبها مكتبا لتعليم الأيتام كتاب الله تعالى، وهذه المدرسة من أجل مدارس القاهرة.²

ب. المدرسة المنصورية:

أنشأها الملك المنصور قلاوون سنة 683هـ/1284م هي والقبة التي اتجاهاها، وهما جميعا من داخل باب المارستان المنصوري³، كان على عمارتها الأمير علم الدين سنجر الشجاعي⁴، رتب في هذه المدرسة دروس فقه على المذاهب الأربعة ودرس تفسير ودرس حديث ودرس طب.⁵

ج. المدرسة الناصرية:

أنشأها الملك العادل زين الدين كتبغا المنصوري سنة 695هـ/1296م، وبعد أن خلع أتممها الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة 703هـ/1303م، تقع بشارع المعز لدين الله بين القصرين شرق القبة المنصورية ورتب بها درس للمذاهب الأربعة، وهي من أجل مباني القاهرة⁶، تمتاز هذه المدرسة من الوجهة المعمارية أنها مزينة بالزخارف والكتابات وطرز بوابتها من الرخام المضلع والمثدنة القائمة على الباب وهي من أحسن ما وجد من نوعها.⁷

1 محمد العنقارة، المدارس في عصر دولة المماليك (648-923هـ/1250-1517م)، المجلس الأعلى للثقافة، الأردن، 2015، ص 126.

2 المقريري، الخطط، ج3، ص 479.

3 نفسه، ص 480.

4 سنجر علم الدين الشجاعي المنصوري: شغل منصب وزير مصر والمسؤول عن ديوانها ونائب سلطنة دمشق، كان عارفا بالسياسة والعمارة. أنظر: الصفي، المصدر السابق، ج15، ص 487.

5 السيوطي، المصدر السابق، ج2، ص 264.

6 العنقارة، المرجع السابق، ص 131، 132.

7 ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج9، ص 208.

الملاحظ على مدارس العصر المملوكي هي أنها لم تكن في كثير من الحالات بناء مستقلا بذاته، إنما كانت ملحقة بالقبة التي بناها السلطان أو الأمير ليدفن فيها، ومن الواضح أن هذا التفكير مصدره طلب الرحمة لصاحب المدرسة¹، ومن ذلك إنشاء ابنة² السلطان الناصر محمد المدرسة الحجازية وأقامت بجانبها قبة لتدفن فيها، ورتبت بشباكها عدة قراء يتتأوبون على قراءة القرآن وجعلت بجانبها مكتبا للسبيل فيه عدة أيتام المسلمين ويتم كسوتهم³.

انتشرت المدارس في بلاد الشام بشكل متزايد موزعة على مختلف مدنها، ففي دمشق في القرن 13/هـم بلغ عدد المدارس بها 92 مدرسة، وما إن جاء القرن 9/هـم 15 وصلت إلى 151 مدرسة، أما مدارس حلب فبلغ عددها 46 مدرسة وثمانية دور لتدريس الحديث، ومدارس القدس بلغت 41 مدرسة، أما مدارس طرابلس فكان عددها 17 مدرسة و13 مدرسة في حماة وغيرها⁴...، ومن أمثلة هذه المدارس:

د. المدرسة الجقمقية:

أسسها سنجر الهاللي⁵ وولده شمس الدين، فانتزعها الملك الناصر حسن سنة 761/هـ 1359م وأمر بعمارتها وهي مدرسة حنفية⁶.

هـ. المدرسة الأسعدية:

1 سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري، ص 166.
 2 الست الجلييلة الكبرى خوند تتر الحجازية ابنة السلطان الناصر محمد بن قلاوون وزوجة الأمير بكتمر الحجازي. أنظر: المقرئزي، الخطط، ج3، ص 487.
 3 المقرئزي، الخطط، ج3، ص 487.
 4 معن علي المقابلة، المدارس في بلاد الشام في العصر المملوكي (648-923هـ)، مجلة الجامعة الإسلامية، العدد 146، د.ت، ص 11-9.
 5 سنجر عبد الله النجمي مولى نجم الدين بني هلال مات سنة 769هـ. أنظر: النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، تح: جعفر الحسيني، مطبعة الشرقي، دمشق، 1367هـ/1948م، ص 489.
 6 أحمد خالد جوده، المدارس ونظام التعليم في بلاد الشام في العصر المملوكي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1422هـ/2001م، ص 138.

أسسها الخوaja إبراهيم الأسعدي¹ بالجسر الأبيض بدمشق سنة 871هـ/1414م وكان الأسعدي من كبار التجار وأكثرهم كرما وإحسانا للفقراء فكانت أحسن عمائر دمشق، وهي وهي مدرسة على المذهب الشافعي، بني بها تربة ورتب بها الفقراء وجماعة يقرؤون القرآن.²

4. البيمارستانات³:

كانت البيمارستانات من أهم المؤسسات الطبية في العصور الإسلامية، وقد ساهم الممالك بتطويرها وتقديمها واتخاذ المنحى الإنساني في طريقة معاملة المرضى سواء في وجودهم في البيمارستان أو بعد الخروج منه.⁴

أسست الدولة المملوكية بيمارستانات لعلاج المرضى ورعايتهم بالمجان، وكان للمجانين دور علاجهم ويرافقهم من يعتني بهم ويتجول بهم في الحدائق والبساتين لترتاح نفوسهم⁵، ومن أشهرها:

أ. البيمارستان المنصوري:

بناه السلطان المنصور قلاوون بالدار القطبية سنة 683هـ/1284م بمباشرة الأمير علم الدين الشجاعى وجعل من داخله المدرسة المنصورية وتربة للدفن⁶، لما أنجزت العمارة أوقف عليها الملك المنصور من الأملاك بديار مصر وغيرها ما يقارب مليون درهم في كل سنة وكانت البيمارستانات تفتح أبوابها للفقراء وكل أبناء الشعب دون تمييز، وما يثبت ذلك قول المنصور "قد وقفت هذا على مثلي فمن دوني، وجعلته وقفا على الملك والمملوك والجندي والأمير والكبير والصغير والحر والعبد والذكور والإناث".⁷

¹ الخوaja إبراهيم الأسعدي: هو التاجر إبراهيم بن مبارك شاه الأسعدي من كبار تجار دمشق، كان كثير المال والبنين توفي سنة 826هـ/1422م ودفن بتربة. أنظر: بدران، المرجع السابق، ص 79.

² النعيمي، المصدر السابق، ص 150.

³ البيمارستان: كلمة فارسية مركبة من مقطعين (ببمار) أي المريض و(ستان) أي مكان أو الدار، ومعناه مكان المرضى وهي بمثابة المستشفيات في العصر الحديث. أنظر: عليا عكاشة، العمارة الإسلامية في مصر، الجيزة، 2008، ص 88.

⁴ محمد ريحان، المرجع السابق، ص 195.

⁵ مبارك محمد سالم الطراونة، المرجع السابق، ص 144.

⁶ القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص 370.

⁷ المقرئزي، الخطط، ج3، ص 548.

وكان به أطباء مختصون في الجراحية والكحاليين (أطباء العيون) وكذلك الأمراض النفسية وهيأت أماكن لإقامة النزلاء وتوفير الأطعمة والأدوية والكسوة مجاناً بصرف النظر عن جنسه أو سنه أو حالته الاجتماعية.¹

ب. البيمارستان المؤيدي:

أنشأه المؤيد شيخ سنة 821هـ/1418م ونزل فيه المرضى، وبعد وفاة الملك المؤيد سكنه طائفة من العجم وصار منزلاً للرسل الواردين من البلاد إلى السلطان.²

ج. البيمارستان القميري:

أنشأه أمير مملوكي من أصل كردي، هو سيف الدين القميري³ بصالحية دمشق سنة 646هـ/1248م احتوى غرف خاصة بالمرضى سواء النساء أو الرجال إلى جانب عيادة خارجية للفحص به الأطباء والمرضى والصيادلة فهو كامل التنظيم.⁴

5. الحمامات:

انتشرت الحمامات في كافة المدن والقرى وارتادها الناس من مختلف المراتب والفئات الاجتماعية، لأنهم لم يألفوا الاستحمام في منازلهم لعدم وجودها إلا في قصور الأمراء والقضاة وميسوري الحال من التجار.⁵

أنشئت الحمامات قرب مصادر المياه كالعيون الكبرى⁶ ورعي في تخطيطاتها الجانب الاجتماعي بما يتلائم مع القيم الإسلامية، فوجد منها ما هو للرجال وما هو للنساء كما كان الحمام

¹ هاني حمزة، المرجع السابق، ص 137.

² المقرئزي، الخطط، ج3، ص 553.

³ سيف الدين القميري: هو سيف الدين أو الحسن علي بن يوسف بن أبي الفوارس القميري، من أجل الأمراء في دمشق، توفي سنة 653هـ/1255م ودفن بقبة مارستانه بالصالحية. أنظر: بدران، المرجع السابق، ص 259.

⁴ نيقولا، المرجع السابق، ص 124.

⁵ مبارك محمد سالم الطراونة، المرجع السابق، ص 147.

⁶ ابن شحنة، المصدر السابق، ص 131.

مركزاً نشطاً من مراكز الحياة الاجتماعية إذ اعتادت الذهاب إليه بدافع الترفيه والترفيه عن النفس وللنظافة، كما استغل للبحث عن الفتيات الراغبات بالزواج وكذا ممارسة احتفالات الزواج فيه.¹

أقام المماليك الكثير من القصور الفاخرة مثل قصر قوصون بالقرب من القلعة وقصر بشتاك أيام الملك الناصر، كذلك أقاموا الوكالات² والخانات³ والأسبلة التي كانت تشيد إما منفصلة أو ملحقة بالمساجد والمدارس وحتى المنازل، وكان وراء بنائها غرض روعي هو كسب الثواب من سقاية الناس⁴، كما عنى المماليك بالعمارة الحربية والحصون والقلاع مثل قلعة قايتباي بالإسكندرية سنة 884هـ.⁵

¹ مبارك محمد سالم الطراونة، المرجع السابق، ص 147-149.

² الوكالة: مبنى تجاري يستخدم لإقامة تجار القوافل وحفظ البضائع. أنظر: عليا عكاشة، المرجع السابق، ص 86.

³ الخان: كلمة فارسية تعني وهو مكان إقامة الغرباء الذين يزورون البلاد لمدة قصيرة، من الخانات المعروفة خان الخليلي أنشأه الأمير المملوكي جهاركس الخليل أمير الخيول للسلطان ظاهر برقوق. أنظر: عليا عكاشة، المرجع السابق، ص 87.

⁴ عليا عكاشة، المرجع السابق، ص 81.

⁵ كمال الدين سامح، المرجع السابق، ص 102.

الفصل الثالث:

الأزمات في الدولة المملوكية وتأثيرها على
الوضع الاقتصادي والاجتماعي

الفصل الثالث: الأزمات في الدولة المملوكية وتأثيرها على الوضع الاقتصادي والاجتماعي.

المبحث الأول: أهم الأزمات في الدولة المملوكية.

1) الأزمات الطبيعية

أ. الكوارث الطبيعية:

تعرضت مصر في عصر المماليك لسلسلة من الزلازل كانت أغلبها خفيفة لم ينتج عنها أي خسائر، ومن أقوى الزلازل في عهد المماليك البحرية الذي ضرب مدن مصرية عديدة سنة 702هـ/1302م وكان له أثر كبير خاصة على مدينة الإسكندرية.¹

أما في عهد المماليك الجراكسة ضرب زلزال قوي بالقاهرة في شهر رجب سنة 881هـ أكتوبر 1476م وكان شديدا أفزع الناس²، وكذلك وقعت زلزلة هائلة بالفسطاط والقاهرة في شهر محرم من عام 886هـ مارس 1481م لم يعهد مثلها وماجت منها الأرض والجبال والأبنية موجا.³

أما بلاد الشام فقد تعرضت في هذا العصر لثمان وعشرين زلزلة تراوحت شدتها ما بين خفيفة وعظيمة ومهولة، ففي عام 686هـ/1287م في شهري محرم وسفر تعرضت بلاد الشام لثلاث زلازل متتالية، الأولى بمدينة حمص والثانية بمدينة صفد⁴ والثالثة باللاذقية⁵، وفي سنة 692هـ/1293م تعرضت كل من غزة والرملة واللد⁶ لزلزلة عنيفة هدمت الأبراج والمباني والدور.⁷

وقد لعبت الظروف المناخية القاسية دورا كبيرا في الأضرار بالمزروعات والممتلكات والماشية، ففي سنة 818هـ/1415م سقطت أمطار غزيرة على مصر ففاضت منها الأودية وانحدرت المياه إلى

¹ السيوطي، المصدر السابق، ج2، ص 299.

² ابن إياس، بدائع الزهور، ج3، ص 121.

³ السيوطي، المصدر السابق، ج3، ص 301.

⁴ صفد: مدينة في جبال عاملة المطلة على حمص بالشام وهي من جبال لبنان. أنظر: الحموي، المصدر السابق، ج3، ص 468.

⁵ نافذ محمد عبد ربه الشوامرة، الكوارث الطبيعية في بلاد الشام في العصر المملوكي (648-922هـ/1250-1517م)، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ المملوكي، كلية الدراسات العليا، جامعة الخليل، 2012، ص 03.

⁶ اللد: من مدن فلسطين بالشام، وهو منزل جميل فيه ناس يعمرونه وفيه تنزل الرفاق الواصلة من الشام إلى مصر والقافلة من مصر إلى الشام. أنظر: الحميري، المصدر السابق، ص 510.

⁷ ابن تغري بردي، النجوم الزاهدة، ج8، ص 36.

نهر النيل فغيرت لونه¹، وسنة 821هـ/1418م تساقطت أمطار شديدة بمدينة الغربية في شهر ربيع الأول وصاحبه برد كبير زنة الحبة منه مائة درهم²، وفي شهر جمادى الأولى سنة 826هـ أبريل 1423م هطلت الأمطار بغزارة على مصر كلها³، وقد ذكر الذهبي⁴ أزمة البرد العظيم الذي حل بمصر يوم عرفة عام 679هـ أبريل 1282م، وتلج وبرد مفرط في شهر رمضان طال بقاؤه وما نتج عنه من صقيع شديد أثر على الزراعة والثروة الحيوانية.

وكان أيضا للرياح والعواصف تأثير على الاقتصاد المملوكي، ففي شوال 806هـ ماي 1404م هبت على مصر رياح وعواصف حارة (الرياح المريسية)⁵ وفي الربيع تهب رياح الخماسين المترية الحارة من الغرب والجنوب⁶، إضافة إلى الصواعق المتكررة في مصر خلال هذا العصر وما ينتج عنها من حرائق نذكر منها صاعقة وقعت تحت الجبل الأحمر وأخرى بالإسكندرية عام 679هـ/1282م.⁷

كما عانت مصر منذ القديم وحتى عصر سلاطين المماليك من اضطراب نهر النيل، فقد ظل هذا النهر العظيم قوام الحياة المصرية وعليه مدارها بفيضه وغيضه، وهكذا لعب الفيضان السنوي دورا هاما وحيويا في حياة المصريين⁸، فإذا قل عن الحد اللازم فات أوان الزراعة وأما إذا زاد عن الحد المطلوب أغرق البلاد وتأخرت الزراعة وما يتبع ذلك من فسادها⁹، ومن أمثلة نقصان النيل وحدث الجذب والقحط عامي 787هـ/1385م¹⁰ و796هـ/1393م وفيه شرقت أغلب الأراضي.¹¹

1 المقريري، السلوك، ج6، ص 383.

2 ابن حجر، المصدر السابق، ج3، ص 158.

3 المقريري، السلوك، ج6، ص 463.

4 تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تح: عمر عبد السلام تدميري، دار الكتب العربي، لبنان، بيروت، ط1، 1999، ج5، ص 52.

5 المقريري، السلوك، ج6، ص 106.

6 مجدي عبد الرشيد بحر، المرجع السابق، ص 206.

7 الذهبي، تاريخ الإسلام، ج50، ص 53.

8 قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص 160.

9 مجدي عبد الرشيد بحر، المرجع السابق، ص 200.

10 المقريري، السلوك، ج5، ص 173.

11 المقريري، إغاثة الأمة، ص 115.

وقد عانت مصر من القحط والجفاف عندما توقف النيل عن الزيادة سنة 853هـ/1449م فأشرفت البلاد على الخراب.¹ ومن أمثلة وفاء النيل سنة 825هـ/1422م الذي تسبب في ارتفاع الفيضان²، كما زاد ماء النيل سنة 845هـ/1441م³ وكان لفيضان النيل العالي سنة 683هـ/1455م أثره في تقطع الجسور وغرق معظم الأراضي.⁴

أما عن كوارث المناخ في بلاد الشام في عصر سلاطين المماليك فلم تكن وطأتها أخف من مصر، فقد عانت من السيول الجارفة بسبب غزارة الأمطار وبسبب الثلوج الموجودة على المرتفعات الجبلية⁵، أمثله ذلك سيل عارم في دمشق سنة 653هـ/1255م⁶ وسيل عام 692هـ/1293م⁷ بمدينة الرملة وفاض نهر العوجاء.⁸

وفي سنة 717هـ/1317م تعرضت بلاد الشام إلى مجموعة سيول مدمرة في مدينة القدس في شهر محرم⁹ وآخر بمدينة حلب في شهر ربيع الأول وآخر بدمشق في شهر شعبان، وقد حدثت عدة فيضانات بسبب ارتفاع منسوب مياه الأنهار كفيضان نهر بردى عام 764هـ/1362م وتكرر فيضانه عدة مرات، وفي سنة 897هـ/1490م فاضت أغلبية أنهار دمشق.¹⁰

إضافة إلى تعرض بلاد الشام لموجات شديدة من تساقط البرد والثلوج وحدوث الصقيع ففي سنة 752هـ/1351م تساقط على دمشق وحولها ثلج لم يرى مثله منذ أكثر من خمسين سنة¹¹، وفي سنة 671هـ/1272م تعرضت مدينة دمشق لتساقط برد كبير تعادل الواحدة منها وزن ثلاثة درهم.¹²

1 مجدي عبد الرشيد بحر، المرجع السابق، ص 201.

2 المقرئزي، السلوك، ج1، ص 84.

3 السخاوي، التبر المسبوك في ذيل المسلك، المطبعة الأميرية بولاق، 1896، ص 51.

4 ابن إياس، بدائع الزهور، ج2، ص 33.

5 نافذ محمد عبد ربه الشوامرة، المرجع السابق، ص 06.

6 الذهبي، تاريخ الإسلام، ج52، ص 16.

7 المقرئزي، السلوك، ج2، ص 240.

8 النهر العوجاء: نهر بين أرسوف والرملة. أنظر: الحموي، المصدر السابق، ج4، ص 167.

9 الحنبلي، المصدر السابق، ج2، ص 294.

10 نافذ محمد عبد ربه الشوامرة، المرجع السابق، ص 7.

11 ابن القاضي شهبة، المصدر السابق ج2، ص 520.

12 نفسه، ج1، ص 904.

كما واجهت بلاد الشام موجات شديدة من الريح والعواصف الباردة والحارة كريح شديدة البرودة سنة 692هـ/1291م¹ بمدينة معان²، وفي ربيع الأول سنة 825هـ/1422م هبت ريح حارة ذات سموم على منطقة الكرك ونواحيها.³

أما عن الصواعق فكانت شديدة ومتكررة في بلاد الشام كالتى حدثت بمدينة صغد في شهر رمضان سنة 676هـ/1277م فكانت مدمرة.⁴

وتعتبر أزمة القحط والجفاف من أشد الكوارث الطبيعية خطورة على المجتمع الشامي منها موجة سنة 659هـ/1259م⁵ وموجة 680هـ/1282م.⁶

ب. الآفات الزراعية:

كانت المحاصيل الزراعية والغلال عرضة لبعض الآفات الزراعية في مصر والشام خلال العهد المملوكي مثل الدود والفئران والجراد، ففي مصر كان ينخفض إنتاج القمح والفول والبرسيم والشعير كلما تسلطت الفئران، وفي ذلك يقول ابن إياس⁷ "ثم حدث أمر الفأر تسلط على الجرون وصار يقرض القمح والشعير وهو في سنبله، وهذا الفأر أمر من الله تعالى لا يقدر أحد على رده ولا يطاق لكثرتة" ومن أمثلة ذلك اجتياح الفئران للمحاصيل عام 714هـ/1314م إلى درجة أن حراس الزروع في بعض القرى قتلوا في أيام قلائل مليونين وستمئة وستين ألف فأر.⁸

¹ ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت774هـ)، البداية والنهاية مبدأ الخلفية وقصص الأنبياء، تح: محي الدين ديب، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، دبت، ج13، ص 62.

² معان: مدينة في طرف بادية الشام تلقاء الحجاز من نواحي البلقاء. أنظر: ياقوت الحموي، الجزء 5، ص 179.

³ ابن حجر، المصدر السابق، ج7، ص 450.

⁴ ابن كثير، المصدر السابق، ج13، ص 367.

⁵ المقرئزي، السلوك، ج2، ص 368.

⁶ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج1، ص 61.

⁷ بدائع الزهور، ج4، ص 217.

⁸ مجدي عبد الرشيد بحر، المرجع السابق، ص 205.

وفي سنة 821هـ/1418م اتلفت كميات كبيرة من الفول والقمح والبرسيم¹، وتعرضت له المحاصيل عام 842هـ/1438م². ويعد البرسيم أكثر عرضة للدود لأنه أول المحاصيل التي تزرع فور انحصار ماء فيضان النيل عن الأراضي خصوصا إذا هبط ماء الفيضان سريعا، فيتعجل الفلاحون في بذر البذور قبل الأوان مما يجعلها عرضة للدود.³

وحتى الجراد هدد الحقول المصرية عدة مرات نذكر منها سنة 830هـ/1426م الذي أفسد بعض المزروعات، غير أن هبوب الرياح في هذا الوقت أهلك أعدادا كبيرة منه.⁴

وفي بلاد الشام كانت الجولان وهوران من أكثر المناطق عرضة لظهور قطعان الفئران، فقد ظهرت بشكل كبير جدا في معظم بلاد الشام سنة 770هـ/1360م⁵، وهاجمت أسراب الجراد بلاد الشام أعوام 669هـ/1270م و701هـ/1302م و715هـ/1315م و747هـ/1346م، وفي سنوات أخرى عديدة وإلى جانب الجراد والفئران عانت بلاد الشام من ظهور الدود والعصافير والجنادب ففي سنة 730هـ/1329م ظهر الدود بغوطة دمشق، وفي سنة 899هـ/1493م ظهر ببلاد الحوران ما يسمى بالجنذب وهو دون الجراد بحجمه.⁶

ج. الطواعين:⁷

ذلك الوباء الذي اجتاح الأرض وليس الدولة المملوكية فحسب، فكان فتاكا لدرجة أن الأدوية لم تكن تجدي نفعاً معه لسرعة فتكه بالناس، لذلك كان يموت في اليوم الواحد أكثر من مائتي شخص.⁸

1 ابن حجر، المصدر السابق، ج3، ص 183.

2 المقرئزي، السلوك، ج7، ص 389.

3 مجدي عبد الرشيد بحر، المرجع السابق، ص 204.

4 المقرئزي، السلوك، ج7، ص 358.

5 نفسه، ج4، ص 374.

6 نافذ محمد عبد ربه، المرجع السابق، ص 30-35.

7 الطاعون: الوباء الرهيب الذي عم أنحاء المعمورة ما بين عامي 749/750هـ، ابتداء بالشرق الأوسط وانتهاء بمصر وأوروبا، وقد عرفه المؤرخون العرب باسم "الفتاء الكبير" بينما أطلق عليه مؤرخو أوروبا اسم "الموت الأسود Black Death". أنظر: قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصري، ص 56.

8 السيوطي، المصدر السابق، ج2، ص 292.

أول طاعون حدث في مصر في العصر المملوكي سنة 720هـ/1320م وكان شديدا نوعا ما، أما الطاعون الثاني فقد عم البلاد في شهر صفر سنة 749هـ/1348م¹ واستمر ينشب مخالبه في البلاد حوالي عامين.²

وانتشر الطاعون بمصر في شهر ربيع الأول سنة 790هـ/مارس 1388م وزادت حدته في شهر جمادى الأولى³، كما أصاب الطاعون مصر سنة 848هـ/1444م ضواحي القاهرة وإقليم الشرقية والغربية من الوجه البحري، فقد تزايد الطاعون فيها حتى خرج عن الحد وكان أمره في القرى⁴، وأشهر طواعين الفترة الأخيرة من عصر سلاطين المماليك بمصر هي الطواعين الثلاثة التي شهدها السلطان الأشرف قايتباي وكان آخرها سنة 897هـ/1492م.⁵

أما عن تفشي الطاعون في بلاد الشام لأول مرة فيذكر ابن إياس⁶ أنه كان في سنة 656هـ/1258م وتكرر بها عدة مرات طوال فترة حكم سلاطين المماليك بها كطاعون سنة 749هـ/1348م الذي كان شديدا واستمر حتى سنة 750هـ/1349م⁷، كما اشتد الوباء بالشام ودمشق سنة 956هـ/1549م فكان فيها من المرض ما لا يحد ولا يوصف، فاستغنى العطارون ونفذت الأدوية وعزّ الأطباء إلى الغاية⁸. وأول ما كان يبدأ الطاعون في الأطفال والإماء والعبيد ثم عم البلاد الشامية بأسرها.⁹

¹ فتحي سالم، المرجع السابق، ص 136.

² قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصري، ص 56.

³ ابن الفرات، المصدر السابق، المجلد 9، ج 1، ص 29.

⁴ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 16، ص 138.

⁵ ابن إياس، بدائع الزهور، ج 2، ص 273.

⁶ بدائع الزهور، ج 2، ص 50.

⁷ محمد حافظ النقر، المرجع السابق، ص 93.

⁸ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج 48، ص 42.

⁹ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 16، ص 138.

(2) الفساد المالي والإداري والسياسي:

لم يلتزم السلاطين بنوع من الاقتصاد في نفقاتهم الخاصة ليخففوا على رعاياهم الأعباء الثقيلة الملقاة على عاتقهم، وإنما استمروا يعيشون عيشة البذخ والإسراف في الوقت الذي يتن فيه الناس من كثرة الالتزامات المفروضة¹، مثال ذلك الأموال الضخمة التي كانت تنفق على الأسمطة السلطانية²، إضافة إلى كثرة رحلاتهم الترفيهية التي أرهقت ميزانية البلاد³، أو رحلات الحج مثال ذلك عندما ذهب السلطان الناصر محمد إلى الحج ضرب المثل بحجته هذه لكثرة ما أنفقه من أموال استعداداً لرحلته، فبلغ مقدار ما أنفقه من عليق الخيول مائة ألف أردب وثلاثين ألف أردب من الشعير⁴، ونسب إلى السلطان الظاهر جقمق (842-857هـ/1438-1453م) الإسراف والتبذير في الأموال فقد كان ينعم في المرة الواحدة بعشرة آلاف دينار فما دون وأتلف أيام سلطنته من الأموال ما لا يدخل تحت حصر لكثرتها⁵.

وتمثل الهدايا أهم جوانب الإنفاق المالي للدولة مما يؤدي إلى تحميل الميزانية أعباء ثقيلة وحوادث العجز المالي كخلعة الاستمرار⁶ وخلعة الانتظار⁷ وخلعة الرضا⁸ وغيرها من أنواع الخلع. ولم يتوقف السلاطين بالرغم من الذائقة الاقتصادية عن شراء الممالك بأعداد كبيرة وبأسعار باهظة⁹، وكذلك من الإنفاق على الأمراء وكانت هذه النفقات تشكل عبئاً كبيراً على خزانة الدولة، ففي

1 سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 566.

2 علي إبراهيم حسن، المرجع السابق، ص 326.

3 قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصري، ص 62.

4 ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 9، ص 58.

5 نفسه، ج 15، ص 198.

6 **خلعة الاستمرار**: تخلع عن يرضى عنه السلطان ويبقيه في منصبه. أنظر: ابن تغري بردي، حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تح: محمد كمال الدين عز الدين، ط 1، 1990، ج 1، ص 54.

7 **خلعة الانتظار**: أو الأناظر، خلعة خاصة بكل وظيفة من الوظائف التي يوليها السلطان تخلع على صاحبها قبل مباشرته لوظيفته الجديدة. أنظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 16، ص 13.

8 **خلعة الرضا**: تخلع عن أساء التصرف مع السلطان ثم اعتذر فيخلع عليه السلطان هذه الخلعة تعبيراً له عن رضاه. أنظر: ابن تغري بردي، حوادث الدهور، ج 1، ص 63.

9 سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 566.

سنة 748هـ/1317م قدم الحمل¹ من الإسكندرية فتم توزيعه على الأمراء فأعطى لنائب السلطنة² ثلاثة آلاف دينار وإلى شيخون ثلاثة آلاف دينار ولعدد من الأمراء لكل واحد منهم ألف دينار.³ وفي سنة 802هـ/1399م أنفق السلطان الناصر فرج بن برقوق (801-808هـ/1398-1405م) على الأمراء فأعطى لكل واحد من الأمراء الكبار مائة ألف درهم ولمن دونهم مرتبة أقل من ذلك، وبلغ مجموع نفقاته على الأمراء والمماليك مبلغ خمسمائة ألف دينار.⁴ ولكثرة المبالغ المخصصة للإنفاق على المماليك والأمراء مع قلة ما موجود من أموال في الخزانة، اضطر عدد من سلاطين مصر إلى الاقتراض أو بيع بعض القرى التابعة إلى بيت المال لتوفير تلك المبالغ.⁵

إلى جانب الفساد المالي تعد ظاهرة شراء الوظائف أبرز الأزمات التي حلت بالدولة المملوكية سواء بمصر أو بلاد الشام، وكان لها تأثير كبير على الوضع الاقتصادي والاجتماعي آنذاك خاصة في العصر المملوكي الثاني، فقد أصبحت الوظائف بيد أشخاص لا كفاءة لهم عن طريق الرشاوى⁶، حيث تقشى ذلك في

مناصب الدولة بين الحكام والمحكومين فتعرضت الوظائف الديوانية للرشوة وشاعت بين أمناء السر وغيرها من المناصب، وفي ذلك يقول ابن تغري بردي⁷ "وكان لا يكاد يولى أحد وظيفة إلا بمال"، نتيجة لذلك اضطر هؤلاء للعمل تحت الخوف من العزل والطرده أو السجن في حالة العجز عن تلبية رغبة السلاطين من الأموال والهدايا التي لا بد منها لضمان استمرار الوظيفة.⁸

¹ قدم الحمل: وجمعه حمول وهو ما يحمل إلى السلطان من محصول إقليم نوعا أو عينا، وكذلك ما يحمله المحكوم عليه عدلا أو ظلما من الأموال إلى خزائن السلطان. أنظر: سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي، ص409.

² نائب السلطنة: يعرف بالكافل للمالك الإسلامية وهو يحكم جميع ما يحكم به السلطان وجميع نواب السلطنة يكاتبونه مثلما يكاتبون السلطان وهو الذي يعين أرباب المناصب العالية كالوزارة وكاتب السر وهو سلطان مختصر بل هو السلطان الثاني. أنظر:

القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص16.

³ المقرئزي، السلوك، ج2، ص760.

⁴ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج12، ص198.

⁵ علي إبراهيم حسن، المرجع السابق، ص327.

⁶ مصطفى غازي مصطفى مدور، المرجع السابق، ص239.

⁷ النجوم الزاهرة، ج11، ص239.

⁸ سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري، ص233-234.

وقد ساهمت الفتن والمنازعات الداخلية وحروب الشوارع بين طوائف المماليك لا سيما في الطور الأخير من العصر المملوكي في تفاقم الأزمات الاقتصادية والاجتماعية في مصر وبلاد الشام، وكذلك صراع الأمراء على السلطنة من جهة وسوء تدابير الحكام وإغفالهم مصالح الناس من جهة أخرى¹، مما أدى إلى حدوث عدة ثورات ضد الحكم من بينها ثورات العريان (البدو) الذين كانت هجماتهم من حين إلى آخر على أطراف المدن والقرى وعلى القوافل التجارية وغير التجارية وألحقوا أضراراً على حركة نقل البضائع إلى الأسواق وعلى المزارعين والمنتجين.²

¹ قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصري، ص 62.

² سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري، ص 102.

المبحث الثاني: آثار وانعكاسات الأزمات على الدولة المملوكية.

(1) الآثار الاقتصادية:

كانت الأزمات بمختلف أنواعها من العوامل المؤثرة في اقتصاد الدولة المملوكية، فتضررت الزراعة والثروة الحيوانية وكذا الصناعات والحرف كما صاحب التجارة ركود وارتفاع في الأسعار.¹ كان تقصير النيل عن حد الوفاء أو زيادته عن الحد المطلوب له آثار على الحياة، ذلك أن النيل إذا قل عن الحد اللازم شرقت² البلاد وفات أوان الزراعة، كما كانت زيادة النيل تغرق البلاد وينتج عنها تأخر الزراعة وفي كلتا الحالتين يترتب عنه فساد الغلال والغلاء والمجاعات وما يتبع ذلك من أوبئة وطواعين.³

ارتفعت أسعار الغلال نتيجة تسارع التجار لتخزينها طمعا في الحصول على أرباح أكثر فنقل البضاعة في الأسواق لعدم زرع المحاصيل الجديدة⁴، ففي سنة 695هـ/1296م زمن السلطان العادل كتبغا وقع الغلاء العظيم فبلغ أردب القمح مائة وثمانين درهم والشعير والفول ثمانين درهم وعدم سائر الحبوب⁵، نتيجة للمجاعات التي صاحبت غلاء الأسعار في السنوات الممتدة من 796هـ/1394م إلى 808هـ/1405م في كل ما يباع من مأكول ومشروب وملبوس وتزايد أجر الأجراء وأرباب الصنائع والمهين.

فعندما جاء الغيث واحتاج الناس للبذر كانت الغلال تحت أيدي أهل الدولة نتيجة احتكار الدولة للأقوات ومنع الوصول إليها إلا بما أحبوا من أثمان فتقاوم الأمر وجل الخطب.⁶

¹ زينب أحمد علي أبو علي، الآثار الاقتصادية والاجتماعية للكوارث الطبيعية في مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة (784-923هـ/1382-1517م)، قسم التاريخ، جامعة الأزهر، مصر، العدد 22، 2001، ص 271.

² شرقت الأرض: ظمئت ولم يصل إليها الماء فاشتدت حاجتها إليه فلما رويت حصل لها من الري نفس مقدار ما حصل لها من الظمأ. أنظر: ابن ممتي، المصدر السابق، ص 201.

³ مجدي عبد الرشيد بحر، المرجع السابق، ص 199.

⁴ قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصري، ص 53.

⁵ ابن أبيك الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر، تح: أولرخ هارمان، مركز ودود للمخطوطات، القاهرة، 1391هـ/1971م، ج2، ص 363.

⁶ المقرئزي، إغاثة الأمة، ص 116.

وكذلك الحال سنة 837هـ/1433م ارتفعت أسعار القمح إلى مائتين للأردب والفلول والشعير إلى مائة وسبعين، فهرع الناس وتكالبوا على شرائه¹، واستمر ارتفاع أسعار المواد الأساسية من قمح وشعير وفول وكل شيء تزايد سعره أضعاف ما كان عليه سنة 853هـ/1449م و854هـ/1450م²، فأغلى ما بيع به القمح تسعمائة درهم وأرخص ما بيع به أربعمائة درهم وخمسين درهما للأردب³.

وإذا جاء الفيضان كثر تقطع الجسور حتى غرق منها عدة وغرق فيها من الغلال ما قيمته آلاف الدنانير وشرقت البلاد سنة 835هـ/1431م⁴، ما أدى لحدوث المجاعات كما هو الحال في الحجاز ومكة واليمن، فقحطت البلاد وهدمت دوابهم وهلكت مراعيهم فعظم الجوع وانتهب الخبز من الأفران والحوانيت حتى العجين كان إذا خرج للفرن انتهبه الناس ولا يخرج الخبز منه إلا ومعه عدة يحمونه وذلك سنة 695هـ/1295م⁵، فوصل الأمر بالناس إلى أكل الحيوانات وقيل أن الكلب السمين صار يباع بخمسة دراهم، القطعة بثلاثة دراهم⁶، كما صاحب الفناء الكبير ما بين (749هـ-750هـ/1348-1349م) أو ما يسمى بالطاعون تناقص عدد الفلاحين مما سبب اضطرابات اقتصادية⁷.

أدى اعتماد الأراضي الزراعية في بلاد الشام على مياه الأمطار مما يعني تأثرها بكمية المطر الساقطة وكذا تأثرها بموجات البرد والصقيع، فارتفعت الأسعار ووصلت غرارة⁸ القمح إلى ثلاثمائة درهم وفي القدس المناطق المجاورة لها بدرهم⁹، تعرضت بلاد الشام للجفاف سنة 799هـ/1396م وجفت الأنهار فنهر بردى ليس فيه ماء وقد صار مرجا يمشي فيه الناس، وغلقت الطواحين لقلّة

1 ابن الصيرفي، المصدر السابق، ج3، ص 291.

2 ابن تغري بردي، حوادث الدهور، ص 221.

3 نفسه، ص 285.

4 ابن الصيرفي، المصدر السابق، ج3، ص 241.

5 المقرئزي، إغاثة الأمة، ص 108.

6 ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ص 133.

7 قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصري، ص 56.

8 غرارة: مكيال دمشقي للحنطة وتعني العدل من صوف أو شعر، يبلغ وزن الغرارة حوالي 29.6 كغ. أنظر: قالترهنتس، المرجع السابق، ص 64.

9 الناطور، المرجع السابق، ص 232.

المياه ونشفت آبار دمشق وفسدت الزروع وتحولت لمراعي للدواب¹، وبالتالي أثر الجفاف على الزراعة سواء بطريقة مباشرة بقلّة الانتاج الزراعي أو بطريقة غير مباشرة من خلال انخفاض منسوب المياه في الأنهار، ولا يقل تأثير غزارة الأمطار وما يترتب عنها من سيول عن انحباسها فهي تتلف المحاصيل وتدمر النواهير وتغرق الطواحين كما حدث سنة 786هـ/1384م في غوطة دمشق.²

تعرضت الدولة المملوكية للآفات الزراعية ألحق بأشجارها ومزروعاتها أضراراً بالغة ترتب عليها خسائر مادية كبيرة، إضافة إلى ارتفاع أسعار الغلال والفواكه فعلى سبيل المثال لا الحصر في سنة 748هـ/1396م ارتفاع سعر القمح بدمشق حيث بلغ سعر الغرارة مائتين بسبب أكل الفئران الزرع³، وكذلك الحال بالنسبة للجراد فقد هاجم الأشجار وتركها مجردة وأكل محصول القمح وهو على وشك النضو فعز وجوده وارتفعت أسعاره بنسبة 100% وكثر الجراد والفأر ببلاد الشام وترك آثاراً بالغة في القطاع الزراعي.⁴

وشهدت الثروة الحيوانية في أوقات الأزمات تدهوراً واضحاً نتيجة انعدام علف الحيوان، فنفتت الماشية والأبقار وارتفع سعر الحيوانات واللحوم وانتشر الوباء في البقر حتى كادت الدولة أن تقنى منها سنة 794هـ/1391م⁵، وأدى ذلك إلى تعطيل الطواحين والدواليب⁶ والسواقي وتعطل حراثة وزراعة مساحات واسعة من الأراضي وتعطلت معاصر الأقباب كما حدث سنة 700هـ/1300م⁷، وفي سنة 833هـ/1429م مثلاً وجدت الكثير من السمك والتماسيح قد طفت على وجه الماء ميتة، كما وجد في البرية عدد من الضباء والذئب الموتى وامتد أثره على طير السماء وحياتان البحر.

¹ فوزي خالد الطواحية، الكوارث الطبيعية وآثارها على الحياة الزراعية في بلاد الشام في العصر المملوكي الثاني (784-922هـ/1382-1517م)، دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 41، العدد 1، 2014، ص 143.

² نفسه، ص 146.

³ ابن قاضي شهبة، المصدر السابق، ج2، ص 502.

⁴ حميدان محمود ناجي، الكوارث الطبيعية وآثارها في بيت المقدس في العهد المملوكي (648-923هـ/1250-1516م)، المجلة العربية للعلوم ونشر الأبحاث، المجلد 7، العدد 2، 2023، ص 09.

⁵ السيوطي، المصدر السابق، ج2، ص 308.

⁶ الدواليب: آلة تدوير على محور من خشب كدولاب البئر ويعرف بالغرراف حيث يغوص جانب منه في الماء ثم يصعد إلى الأعلى عند دورانه محملاً بالماء فيصبه في الأرض لسقايتها. أنظر: رينهارت دوزي، *تكملة المعاجم العربية*، تر: محمد النعيمي، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، 1981، ج4، ص 398.

⁷ منال أحمد إبراهيم أوريتون، *المجاعات في مصر وبلاد الشام في العصر المملوكي*، رسالة لنيل الماجستير، جامعة اليرموك، 1998، ص 113.

زيادة عدد الأموات أدت إلى ارتفاع أسعار الثياب التي يكفن بها وارتفع سعر سائر ما يحتاج إليه المرضى كالسكر والكمثري والأدوية التي تستعمل للعلاج¹.

وفي سنة 1296/هـ695م باع عطار برأس حارة من القاهرة في شهر واحد بمبلغ إثنين وثلاثين ألف درهم وطلب الأطباء وبذلت لهم الأموال فكان كسب الواحد منهم مائة درهم²، وفي المقابل كسدت بضائع أخرى بسبب الاجراءات التي اتخذتها السلطة كالبضائع النسائية من ثياب وعطور وغيرها بسبب منعهم من الخروج، إضافة إلى قلة تبادل البضائع بسبب خشية التجار من الوباء إذا ما قدموا كما حدث سنة 1429/833م وسنة 1437/هـ841م³.

كما أن هبوط النيل سنة 1403/هـ806م قلل من حركة الملاحة في النهر فتوقف مراكب الغلال مما أثر على توفرها في الأسواق وزيادة سعرها⁴، ولم تكن طريق النهر آمنة للتجارة فإن قراصنة النهر كانوا يهاجمون المراكب والسفن التي تحمل الغلال مما يؤدي إلى تخوف التجار والامتناع عن جلب تجارتهم فترفع الأسعار وتختفي السلع من الأسواق مثل ما حدث سنة 1419/هـ822م⁵.

إن كل من الكوارث الطبيعية والآفات الزراعية وكذا الأوبئة والثورات الداخلية، عاد على الحياة الاقتصادية بأفدح العواقب.

1 ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج14، ص 339، 340.

2 المقرئزي، إغاثة الأمة، ص 109.

3 فتحي سالم حمدي اللهبي وفانز علي بخيت الحديدي، المرجع السابق، ص 152، 153.

4 زينب أحمد علي أبو علي، المرجع السابق، ص 309.

5 قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصري، ص 61.

(2) الآثار الاجتماعية:

تعرض كل من مصر وبلاد الشام للكوارث الطبيعية وما يصاحبها من مجاعات وأوبئة نتج عنه خسائر بشرية كبيرة وتقلص عدد السكان، فقد مات ثلاثة أرباع من أهل الإقليم من الجوع ففي مدة إثنين وعشرين شهرا مات مائة ألف وأحد وعشرون ألفا في القاهرة وحدها سنة 697هـ/1297م¹، وكان يموت في دمشق وحواضرها كل يوم ألف وأكثر وإذا مات إنسان واحد تبعه أهله سنة 749هـ/1348م²، وصار يصلي على الأربعين والخمسين من الأموات معا دفعة واحدة وثم حملهم على الألواح والأقفاص والأيدي، ولكنة عددهم صعب دفنهم وعجزوا عن حفر القبور فعملوا حفائر كبيرة وجعل في الواحدة منها عدة أموات، وأكلت الكلاب الكثير من أطراف الموتى سنة 784هـ/1389م³، وهاجر الناس وخت البيوت من سكانها وتقلصت أعداد القرى سنة 784هـ/1382م⁴.

كان الضحايا من الأطفال والعيبد⁵ بسبب ضعف مناعتهم سواء لسنهم أو بسبب وضعهم الاجتماعي وعدم قدرتهم على الحصول على الغذاء بسبب ارتفاع الأسعار⁶، والجدول الموالي يبين ذلك:

1 السيوطي، المصدر السابق، ج2، ص 292.

2 ابن القاضي شهبة، المصدر السابق، ص 551.

3 ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج14، ص 342، 343.

4 مجدي عبد الرشيد بحر، المرجع السابق، ص 203.

5 أشتور، المرجع السابق، ص 396.

6 قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين، ص 184.

المرجع	اللحوم بالرطل	الخبز بالرطل	الفول بالأردب	الشعير بالأردب	القمح بالأردب	السنة
	5-8 درهم	-	75-70 درهم	60-65 درهم	60-90 درهم	1423هـ/826م
عبده قاسم، عصر سلاطين، ص 184.	6-8 درهم	$1\frac{3}{4}$ درهم	100 درهم	100 درهم	220 درهم	1424هـ/827م
		$1\frac{3}{4}$ درهم	300 درهم	300-330	300 درهم	1425هـ/828م
	-	-	300 درهم	درهم	300-500 درهم	1429هـ/832م
	4-6 درهم					

الجدول 01: أسعار المواد الغذائية في عصر المماليك (828-832هـ/1423-1426م)

من خلال الجدول نلاحظ ارتفاع أسعار المواد الغذائية على مدار الفترة الزمنية الممتدة من 826-832هـ/1423-1426م، وكذا اختفاء البعض منها أحيانا مثل الخبز في سنتي 826هـ/1423م و832هـ/1426م واللحم سنة 828هـ/1425م، ما نتج عنه عدم تحقيق الإكتفاء الذاتي وبالتالي حدوث المجاعات.²

كما أن الفتن الداخلية تسببت في غلق الأسواق والحوانيت بمجرد إشاعة موت أحد السلاطين أو اقتتال أمراء المماليك فيما بينهم، ومن أمثلة ذلك ما حدث سنة 693هـ/1294م حين جاء الخبر بمقتل السلطان الأشرف خليل وقاس الناس شدة عزيمة¹، وفرض العريان على التجار وأرباب المعاش بأسيوط ومنفلوط فرائض جابوها ومنعوا الخراج.²

¹ ابن أبيك الدواداري، المصدر السابق، ج8، ص 283.

² المقرئزي، السلوك، ج2، ص 308.

كانت سوق النقد تتأثر بالحالة الاقتصادية للبلاد، فيكثر غش النقود واختفاء الذهب والفضة تقريبا في السنوات الأخيرة وسيطرة العملات الأجنبية في السوق المحلية¹، فضربت في

الإسكندرية نقودا ناقصة الوزن عن العادة طمعا في الربح²، وفي سنة 806هـ/1405م نودي على الفلوس بأن يتعامل بها بالميزان وسعرت كل رطل³ ستة دراهم وكانت فسدت إلى غاية أن صار وزن الفلوس ربع درهم⁴ بعد أن كان مثقالا⁵، وفي أيام الظاهر برقوق جلب النحاس الأحمر من بلاد الفرنجة لضرب الفلوس وصارت هي النقد الغالب في البلاد وقلت الدراهم⁶ وأصبحت النقود الرسمية المتداولة في العهد الجركسي هي الفلوس وأبطلت الدراهم النقرة⁷، ونتيجة لذلك عانى الناس الكثير بسبب انخفاض أسعار النقود وثبات أسعار المبيعات وأجور العمال مما أدى إلى إغلاق الأسواق، وبسبب انعدام الذهب والفضة وسوء الأوضاع عادت البلاد إلى نظام المقايضة والتبايع بالغلل⁸.

كما أدت الأزمات الاقتصادية إلى تغير تركيبة المجتمع وارتفاع عدد الفقراء بسبب بيع الناس ما يملكون لشراء الغذاء، واضطروا في بعض الأحيان لبيع أطفالهم ما زاد من عدد الرقيق في الدولة⁹ وكثر الشحاذين ومنهم من ادعى الفقر حتى يحصل على الصدقات التي توزع ومن هؤلاء الحرافيش مثل ما حدث سنة 855هـ/1451م¹⁰، ففي سنة 833هـ/1429م كانت الأملاك تنقل في مدة قصيرة

1 قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين، ص 189.

2 السيوطي، المصدر السابق، ج 2، ص 308.

3 رطل: معيار يوزن به، يختلف وزنه باختلاف البلاد ويساوي 12 أوقية حيث يزن الأوقية في مصر 37.5 غ. أنظر: قالترهنتس، المرجع السابق، ص 30.

4 درهم: عملة معدنية تداولها العرب المسلمون وهو مصكوك من الفضة والنحاس يعود قدمها إلى زمن عمر بن الخطاب وكان وزنه 2.97 غ. أنظر: المقرئزي، إغاثة الأمة، ص 90.

5 منقال: أساس نظام الأوزان الإسلامية يستند إلى السوليدوس الرومي البيزنطي، حيث يساوي 4.23 غ. أنظر: قالترهنتس، المرجع السابق، ص 9.

6 المقرئزي، إغاثة الأمة، ص 145.

7 الدراهم النقرة: تغلب فيها نسبة الفضة على النحاس في معظم العصور. أنظر: المقرئزي، إغاثة الأمة، ص 141.

8 منال أحمد إبراهيم، المرجع السابق، ص 418.

9 قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين، ص 185.

10 زينب أحمد علي، المرجع السابق، ص 333.

عن ثلاثة أجناد أو أربعة أو خمسة¹ وكان الميراث ينقل في اليوم الواحد من شخص لآخر إلى أن ينتقل إلى بيت المال، كما حدث سنة 749هـ/1348م.²

أثرت الأزمات على أخلاق الناس ففي سنة 829هـ/1424م انتشرت السرقة خاصة سرقة الأفران من أجل الحصول على الخبز وكذا سرقة الأكفان بسبب كثرة الموت وارتفاع سعر القماش كما حدث سنة 833هـ/1429م، وتم ذلك عن طريق نبش القبور، وتعدى إلى خطف الأطفال وقتلهم من أجل ثيابهم وكثر قطاع الطرق في النيل لأخذ مراكب الغلال.³

لجأ التجار كذلك لأساليب الغش، فكانوا يخلطون الدقيق بغيره من المواد كما حدث خلال سنة 736هـ/1336م، وكان البعض الآخر يبيع لحم الميتات والكلاب للناس.⁴

عرف الناس في هذه الفترة أكل لحوم البشر خصوصا الأطفال، فكان يوجد الميت وعند رأسه لحم لآدمي ويمسك بعضهم فيوجد معه كتف صغير أو فخذ أو أي شيء منه⁵، وأكل الأب ابنه والابن أكل أباه وبيعت لحوم الأدميين في الأسواق جهرا مثل ما حصل سنة 743هـ/1342م.⁶

نتيجة لهذه الأزمات تغيرت حالة الناس، إذ تجدهم متضرعين إلى الله ومهمومين لكثرة عيالهم فلا يكون كلامهم غالبا إلا في القمح والخبز والدقيق.⁷

واختفت الكثير من المظاهر الاجتماعية التي كانت سائدة في العصر المملوكي، ففي عيد سنة 780هـ/1338م تعطلت عمليات البيع والشراء بسبب الضرائب التي فرضت على التجار، وتوقف الحجاج عن الحج وذلك بسبب ما فرض عليهم من شراء الجمال من السوق، وفي عيد الأضحى سنة 873هـ/1468م انقطعت الأضاحي بسبب موت الحيوانات بالطاعون واختطاف المماليك الجلبان

1 ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج14، ص 339.

2 ابن قاضي شهبه، المصدر السابق، ج2، ص 551.

3 منال أحمد إبراهيم، المرجع السابق، ص 76، 77.

4 قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصري، ص 58.

5 المقرئزي، إغاثة الأمة، ص 109.

6 ابن قاضي شهبه، المصدر السابق، ج2، ص 316.

7 ابن تغري بردي، حوادث الدهور، ج14، ص 290.

للأضاحي وأذى العبيد والزعر¹، وقد تأخر دوران المحمل سنة 883هـ/1429م نتيجة لموت المماليك الرماة وكان جمع الناس فيه قليل على غير العادة لكثرة موت الناس.²

هناك تداخل بين الأزمات وآثارها فهي في شكل حلقة يصعب الفصل بينها.

¹ منال أحمد إبراهيم، المرجع السابق، ص 82.

² ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج14، ص 345.

المبحث الثالث: موقف الدولة المملوكية من الأزمات الاقتصادية والاجتماعية.

مواجهه الأزمات وانعكاساتها على السكان في عصر المماليك البحرية (648-784هـ/1250-1382م) كانت أقل مما هي عليه في عصر المماليك الجراكسة (784-923هـ/1382-1517م)، ويرجع ذلك إلى أن دولة المماليك البحرية كانت في بداية حكمها دولة فتية قادرة على مواجهة الأزمات بفضل سلاطينها الأقوياء الذين عملوا جاهدين على جعل دولتهم قوة كبرى.¹

اهتمت الدولة المملوكية في مصر وبلاد الشام بإعمار وترميم ما دمرته الكوارث الطبيعية، وقدمت المساعدات للسكان عن طريق توفير ما يلزمهم، ويعد الظاهر بيبرس من أكثر سلاطين الدولة المملوكية الأولى الذين أبدوا اهتماما كبيرا بالرعايا أثناء حدوث الأزمات²، ففي سنة 662هـ/1264م أمر السلطان بيبرس بإحصاء الفقراء والمساكين بالقاهرة ومصر وجمعهم تحت أسوار قلعة الجبل وألزم نفسه بإطعام عدد منهم، كما ألزم ابنه "السعيد" بإطعام عدد آخر ثم فرق الباقيين على الأمراء لكل حسب عدد خبزه.³

وفي سنة 673هـ/1274م توجه من مصر إلى الكرك وقام بهدم برجين من أبراج قلعتها وبنى مكانها برجين جديدين⁴، كما أمر الصناع والبنائين بإنشاء العديد من الجسور في منطقة الساحل الشامي.⁵

في غالب الأحيان كان الناس يفسرون الكوارث الطبيعية من وجهة نظر دينية وأخلاقية بحثة فيرجعون أسبابها إلى غضب الله من جراء فساد الأخلاق وانتشار الفسق والفجور وسيادة الظلم، فتقوم حملات الدولة لمهاجمة أوكار الفساد وأماكن النزهة ومستودعات الخمور ومخازن الحشيش، وبمجرد انقضاء الأزمة تعود الأمور إلى سيرتها الأولى.⁶

1 محمد حافظ النق، المرجع السابق، ص 135.

2 نافذ محمد عبد ربه الشوامرة، المرجع السابق، ص 107.

3 قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصري، ص 72.

4 ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج3، ص 459.

5 نافذ محمد عبد ربه، المرجع السابق، ص 110.

6 قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصري، ص 58.

وكان السلطان أو الأمراء يحددون يوماً لصلاة الاستسقاء في حالة حدوث القحط والجفاف، فعندما توقف النيل عن الفيضان سنة 854هـ/1450م اضطرب الناس فأمر السلطان الظاهر جقمق بخروج الرعية لصلاة الاستسقاء، فخرج الخليفة والقضاة الأربعة والمشايخ والعلماء والأشراف وطائفة من اليهود والنصارى وسائر الناس وصلى بهم قاضي القضاة شرف الدين يحيى المناوي¹ للاستسقاء² ودعاء الله تعالى بإجراء النيل وأمن الناس على دعائه وعظم ضجيج الخلائق من البكاء والنحيب والتضرع إلى الله تعالى.³

وعندما انتشر الطاعون على الرغم من السعي الحثيث من قبل الدولة والعامّة في آن واحد لاتخاذ الاجراءات الكفيلة للحد من انتشاره والقضاء عليه، إلا أن تلك الاجراءات كانت عقيمة ولم يبق أمامهم سوى الابتهاال إلى الله والدعاء والتوصل إليه لرفع الطاعون عنهم تلقائياً لاعتيادهم لعدم وجود علاج له⁴، ففي سنة 822هـ/1419م نودي في الناس من قبل المحسب أن يصوموا ثلاثة أيام⁵ وقام بمداهمة أماكن العشاء وأراق الخمر.⁶

لكن لم يكن كل السلاطين والأمراء يتصدون لهذه الأزمات، فقد كان منهم من يلحق بهم من كبار موظفي الدولة والفقهاء يفرّون إلى مناطق نظيفة من الوباء تاركين عامة الناس لمصيرهم في مواجهه الجوع والموت⁷، وكانت سرياقوس⁸ هي المكان الذي يفر إليه السلاطين بمواشيهم هرباً من الطاعون.⁹

1 شرف الدين يحيى المناوي: أبو زكرياء شرف الدين المناوي المصري (798-871هـ) نشأ بالقاهرة اهتم بدراسة الحديث والنحو له العديد من المؤلفات، ولي القضاء بالديار المصرية وهو آخر علماء الشافعية ومحققهم. أنظر: السخاوي، الضوء اللامع، ج10، ص 202.

2 ابن حجر، المصدر السابق، ج3، ص 220.

3 ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج15، ص 425.

4 محمد حافظ النقر، المرجع السابق، ص 148.

5 ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج15، ص 425.

6 المقرئزي، السلوك، ج6، ص 425.

7 قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص 180.

8 سرياقوس: أنشأها الناصر محمد بن قلاوون بالقرب من قرية سرياقوس الحالية سنة 723هـ. أنظر: ابن تغري بردي، حوادث الدهور، ج1، ص 105.

9 ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج10، ص 24.

كما لجأت الدولة المملوكية للعديد من الإجراءات الاقتصادية كتفعيل دور المحتسب وأعوانه في الإشراف التام على الاسواق والتشدد بتنفيذ الأوامر السلطانية، وكان السلطان أو نائبه يعزل المحتسب أو الوالي إذا ما نسب إليه سوء التصرف الذي يؤدي إلى حدوث الأزمة، وكثيرا ما كان المحتسب يلزم بيته ولا يخرج خوفا على نفسه من غضب الناس لأنهم ينسبون إليه ما وصلت إليه الحال¹، لذلك كان على المحتسب أن يكون صارما في عمله فيتولى مراقبة الأسعار بدقة ومراقبة عملية البيع والشراء، وحين يمتنع أصحاب المطاحن والمخابز عن البيع يعاقبهم بأبشع ضروب العقاب ويوجه إليهم إنذار بفتح حوانيتهم وتقييد بيع الغلال بحد أقصى متعا للتخزين أو جلب القمح من الخارج.²

كما بادرت الدولة في البحث عن الأقوات المخزنة من العام المنصرم للتخفيف من حدة المجاعة الشديدة³، فكان السلطان يأمر بإخراج الغلال من الشون⁴ السلطانية، ويتم توزيع الخبز على الفقراء في الجوامع وعلى الصوفية في الزوايا والخانقوات والربط.⁵

أولت الدولة عناية بالمرضى الذين كانوا يصابون بالأوبئة والطواعين عن طريق تقديم العلاج اللازم وتشديد البيمارستانات وأوعزت للعمال بتنظيف مجاري المياه وبادروا في تشييد المستشفيات لمعالجة المرضى⁶، ففي سنة 1281/هـ 680م أنشا السلطان المنصور قلاوون البيمارستان المنصوري في مدينة الخليل وأوقف عليه أوقافا من الضياع والبساتين ورتب للمرضى الأشربة والسكر والفراريج والخيار البلدي⁷، وكان السلطان الظاهر ططر 1421/هـ 824م في فترات تفشي الأوبئة والطواعين ينفق الكثير من الأموال على المرضى ويوفر لهم الأدوية والعلاج واهتم بتوفير الأكفان للأموات الذين لا مال لهم.⁸

1 قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص 177.

2 قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصري، ص 68.

3 نافذ محمد عبد ربه الشوامرة، المرجع السابق، ص 110.

4 الشون: أماكن لحفظ الغلال والأتبان والأحطاب لاستهلاكها طوال السنة. أنظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص 33.

5 ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج13، ص 58.

6 نافذ محمد عبد ربه الشوامرة، المرجع السابق، ص 114.

7 النويري، المصدر السابق، ج13، ص 71.

8 فتحي سالم، المرجع السابق، ص 142.

ومن بين الاجراءات السريعة للتقليل من حدة الأزمات الاقتصادية إبطال بعض السلاطين للمكوس، مثلا فعل الناصر محمد بن قلاوون حين أبطل المكس المفروض على الغلال في الشام بسبب موجة القحط والجفاف التي اجتاحت البلاد الشامية¹، كما اعتنى بالزراعة لزيادة المحاصيل وحسن الري وحدد الأثمان وعاقب المخالفين وألغى الكثير من الضرائب²، وفي مصر كان أهم ما ألغى من المكوس ساحل الغلة الذي كانت تباع فيه غلال مدينة القاهرة³.

كما كان للأمرء وغيرهم مساهمات في معالجة الأزمات الاقتصادية مثل ما حدث سنة 806هـ/1403م عندما تزايدت الوفيات بشكل كبير نتيجة للمجاعة التي اجتاحت مصر حتى عجز الفقراء والمساكين عن دفن موتاهم فتصدى لمواراتهم عدد من الأمرء منهم سعد الدين بن غراب⁴ الذي تكفل بالعدد الأكبر فبلغت عدة من وراهم إلى آخر شوال اثني عشر ألفا وسبعمئة⁵.

حيث أنشا مغسلا بجوار بيته كان يستقبل به الأموات فيجهزهم للدفن من ماله الخاص⁶، ومنهم من تبرع بماله كالأمير بكتمر الجوكندار المنصوري⁷ لحل ذائقة الجفاف في مدينة الخليل⁸ عن طريق تسيير المياه من العيون المجاورة إليها، فحفر القنوت وأنفق من ماله الخاص ما يقرب من الأربعين ألف دينار لهذه الغاية ولما فرغ من إيصال الماء إلى المدينة قدمت له أوراق مصروفاته فلم يقع يقرأها ومزقها وقال: "خرجنا عنه الله لا نحاسب عليها"⁹.

1 نافذ محمد عبد ربه الشوامرة، المرجع السابق، ص 113.

2 علي إبراهيم حسن، المرجع السابق، ص 136.

3 نفسه، ص 138.

4 سعد الدين غراب إبراهيم عبد الرزاق بن غراب، نشأ بالإسكندرية وكان ماهرا بالكتابة، تولى للسلطان برقوق عدة وظائف ثم التحق بخدمة السلطان الناصر فرج. أنظر: ابن حجر، المصدر السابق، ج2، ص 328.

5 المقرئزي، السلوك، ج6، ص 108.

6 ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ص 686.

7 بكتمر الجوكندار: هو الأمير سيف الدين تولى نيابة السلطنة في الديار المصرية من قبل الناصر محمد بن قلاوون سنة 709هـ/1309 وتوفي سنة 716هـ/1316. أنظر: المقرئزي، المفقى الكبير، تح: محمد البعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 2006، ج2، ص 459-461.

8 الخليل: اسم موضع وبلدة فيها حصن وعمارة وسوق يقرب لبيت المقدس. أنظر: الحموي، المصدر السابق، ج2، ص 442، 443.

9 نافذ محمد عبد ربه الشوامرة، المرجع السابق، ص 112.

وكان للأعيان وغيرهم إسهامات أيضا وقت المحن خلال هذا العصر، فعندما انتشر الطاعون خصصوا سنة 833هـ/م1429 توابيت للسبيل لحمل الموتى عليه¹، كما شاركوا بالخروج لصلاة الاستسقاء وكثرة الاستغفار لرفع الوباء وحتى الرعية سواء في مصر أو بلاد الشام أظهروا روح التكافل، فقد قدم أصحاب السعة يد العون للفقراء والمساكين وتعاونوا على حفر القبور وتغسيل الموتى وتكفينهم.

¹ المقرئزي، السلوك، ج8، ص 206.

الخاتمة

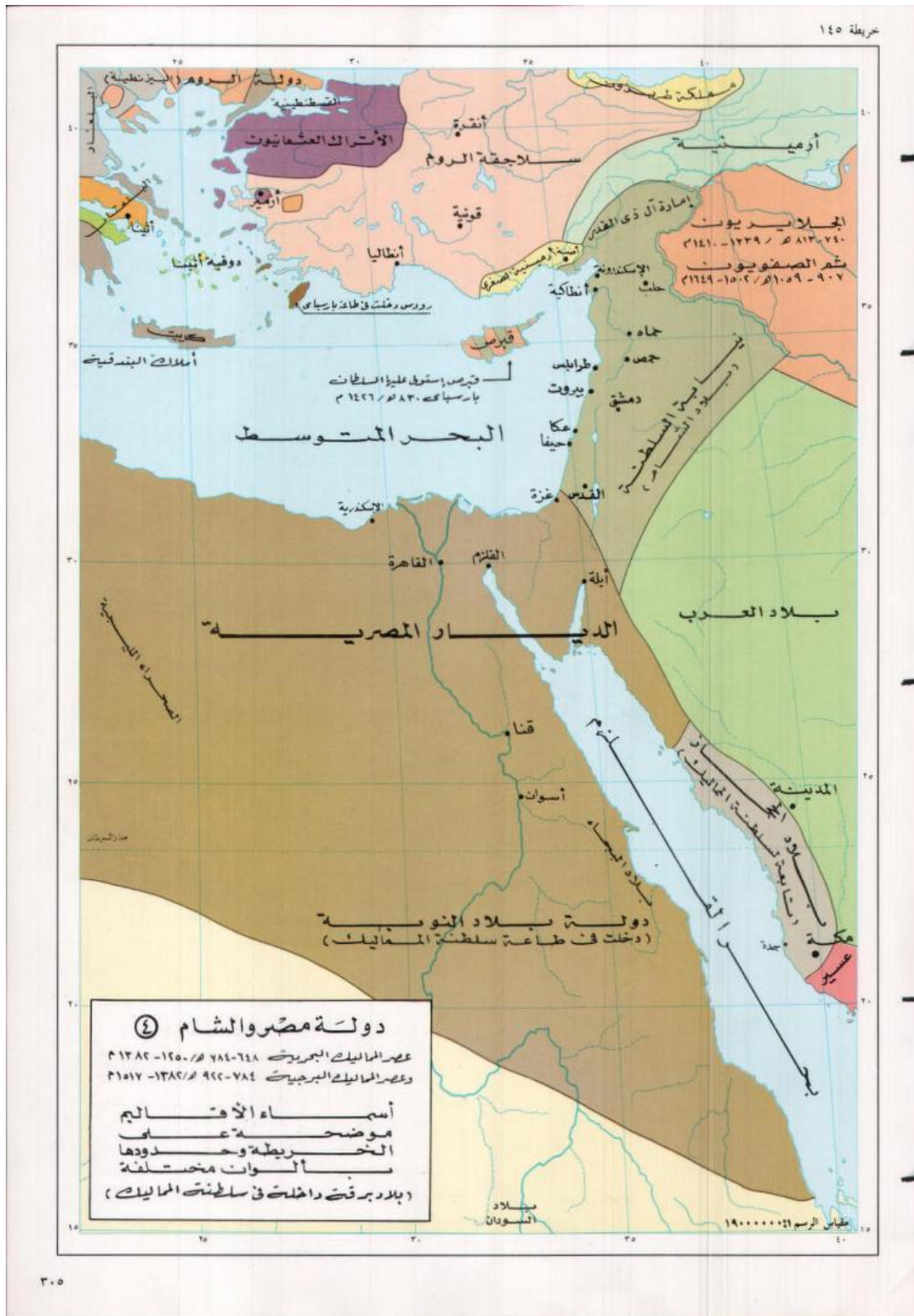
الخاتمة:

- تناولت هذه الدراسة موضوع "الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في الدولة المملوكية في الفترة الممتدة من 7-9هـ / 13-15 م/ وخلصت إلى العديد من النتائج كان أهمها:
- تعد الزراعة من الروافد الأساسية للاقتصاد المملوكي لكثرة إنتاجها وتنوع غلاتها مما انعكس على القطاع الصناعي من خلال استثمار الفائض من المنتجات الزراعية في العديد من الصناعات، ومن ثم تسويقها سواء على الصعيد الداخلي أو الخارجي.
 - لم يحدث تطور كبير في الأساليب والأدوات الزراعية المستخدمة في كل من مصر وبلاد الشام، إنما هي امتداد لتلك التي وجدت قبل العصر المملوكي.
 - شهدت مصر وبلاد الشام تطورا صناعيا واضحا، ومن أشهر أنواع الصناعات النسيج والخزف والسكر والزيت والصناعات الحرفية الخشبية والزجاجية والمعدنية.
 - امتازت التجارة المملوكية بمصر بنوع من التخصص في بيع البضائع بالأسواق بالمدن خاصة مدينة القاهرة على عكس أسواق القرى، كما تميزت بلاد الشام بأسواقها الموسمية التي تقام في موسم الحج.
 - كانت التجارة الخارجية في عصر المماليك مزدهرة لموقعها الاستراتيجي وسيطرتها على الطرق الحيوية، حيث بلغت التجارة الكارمية أوجها في هذا العصر لعناية الحكام والتجار بها لما تدره من ثروات على الدولة.
 - اتضح وجود تعددية دينية وعرقية وقوميات في المجتمع المملوكي منها العربية وغير العربية كالأكراد والأتراك وغيرهم الذين اندمجوا مع السكان الأصليين، كما انقسم السكان إلى شرائح وطبقات أساسية مارست دورا مهما في كافة مجالات الحياة الاجتماعية.
 - تعايش الطبقات والأقليات الدينية في المجتمع المملوكي أسهم في الحفاظ على وحدته والاشترك في العديد من المظاهر الاجتماعية من حفلات ومناسبات التي توضح التآزر الاجتماعي.

الخاتمة

- تميز المجتمع المملوكي بتصميمات ملابس متنوعة تخضع لمواصفات وشروط تختلف من لباس لآخر تبعاً للوظائف المختلفة وحسب طبقات المجتمع، كما تميز بمظاهر من التأنيق في إعداد أصناف متنوعة من مختلف الأطعمة والأشربة.
- اهتم المماليك بالمنشآت العمرانية والمؤسسات الاجتماعية والتربوية من المساجد والخوانق والرباط والبيمرسانات والمدارس التي انتشرت في معظم المدن والقرى وأوقفوا عليها الأوقاف للإنفاق على تعليم ورعاية الفقراء والأيتام.
- تعددت الأحداث والأزمات الاقتصادية التي عاشتها الدولة المملوكية سواء كانت طبيعية كالكوارث والأوبئة أو بشرية كالصراعات الداخلية والفساد المالي وغيرها.
- ترتب عن الأزمات التي عاشتها الدولة المملوكية ارتفاع للأسعار وتضخم الإنتاج إلى جانب الآثار الاجتماعية من خسائر مادية وبشرية والتحلل الأخلاقي وانتشار الفساد والفقير.
- بالرغم من حدوث هذه الأزمات إلا أننا لاحظنا أن المماليك كان لهم دور مميز في معالجتها بالقدر المستطاع.

الملاحق



المصدر :حسين مؤنس، أطمس تاريخ الاسلام، دار الزهراء للاعلام العربي، القاهرة، د.ت، مج 1 ،



مسجد قلاوون، عليا عكاشة، المرجع السابق، ص 32.



المدرسة الناصرية، عليا عكاشة، المرجع السابق، ص 65.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر:

1. ابن الأخوة محمد بن أحمد القرشي (ت729هـ/1328م)، معالم القرية في أحكام الحسبة، تح: محمد محمود شعبان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1976.
2. الأربلي الحسن بن أحمد (ت692هـ/1293م)، مدارس دمشق وروابطها وجوامعها وحماماتها، تح: محمد أحمد دهمان، مطبعة الشرقي، دمشق، 1366هـ/1947م.
3. ابن إياس محمد بن أحمد الحنفي (ت930هـ/1523م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج1 و2 و4، تح: مصطفى زيادة، دار الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1982.
4. — نزهة الأمم في العجائب والحكم، تح: محمد زينهم، محمد غرب، مكتبة صديولي، القاهرة، 1995.
5. ابن أبيك الدواداري أبو بكر بن عبد الله (ت713هـ/1313م)، كنز الدرر وجامع الغرر، ج2، تح: أولرخ هارمان، مركز ودود للمخطوطات، القاهرة، 1391هـ/1971م.
6. البديري عبد الله (ت847هـ/1443م)، نزهة الأنام في محاسن الشام، دار الرائد العربي، بيروت، 1980.
7. ابن بطوطة (ت779هـ/1396م)، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج1، المطبعة الأميرية، بولاق، 1937.
8. البغدادي (ت739هـ/1338م) صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق، مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تح: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، 1992.
9. ابن تغري بردي يوسف الأتابكي جمال الدين أبو المحاسن (ت874هـ/1469م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج8، 9، 10، 12، 13، 14، 15، 16، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، 1949.
10. — المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ج3 و4، تح: نبيل محمود عبد العزيز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1984.
11. — حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، ج1 و14، تح: محمد كمال الدين عز الدين، ط1، 1990.
12. ابن الحاج أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدري الفاسي المالكي (ت737هـ/1336م)، المدخل، ج1 و2، مكتبة دار التراث، القاهرة، د.ت.

13. ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر بأبناء العمر، ج2، 3، تح: حسن حبشي، القاهرة، 1392هـ/1972م.
14. الحموي ياقوت شهاب الدين (ت626هـ/1228م) معجم البلدان، دار صادر، بيروت، لبنان، 1984.
15. الحميري محمد عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، ج1، تح: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984.
16. الحنبلي أبو اليمن القاضي مجيد الدين، الأئس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج2، المطبعة الحيدرية، الجنف الأشرف، 1968.
17. ابن خلدون ولي الدين عبد الرحمن بن محمد (ت808هـ/1405م)، المقدمة، ج2، تح: عبد الله محمد الدرويش، مكتبة الهداية، دمشق، 2004.
18. ابن دقماق إبراهيم بن محمد بن أيذر العلائي (ت809هـ/1406م)، الانتصار بواسطة عقد الأمصار، ج2، المكتب التجاري للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت، 1968م.
19. الذهبي شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان (ت748هـ/1374م)، سير أعلام النبلاء، ج23، تح: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط3، 1985.
20. - تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ج48، 50، تح: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، لبنان، بيروت، ط1، 1999.
21. السخاوي شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت902هـ/1496م)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج1، 10، دار الجيل، بيروت، د.ت.
22. - التبر المسبوك في ذيل السلوك، المطبعة الأميرية بولاق، 1896.
23. السيوطي جلال الدين عبد الرحمان (ت911هـ/1505م)، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج2، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، مصر، 1387هـ.
24. ابن شاهين الظاهري (ت873هـ/1468م)، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، صححه: بولس راوسي، المطبعة الجمهورية، باريس، 1894م.
25. ابن شحنة أبي الفضل محمد (ت815هـ/1412م)، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تق: عبد الله محمد الدرويش، دار الكتاب العربي، سوريا.
26. شيخ الربوة شمس الدين أبو عبد الله محمد (ت727هـ/1326م)، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، بغداد، 1963.

27. الصفدي صلاح الدين خليل بن أيبك (ت764هـ/1363م)، الوافي بالوفيات، ج15، تح: أحمد الأرنبوط وتلاكي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1420هـ/2000.
28. الصيرفي علي بن داود (ت542هـ/1147م)، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، ج3، تح: حسن حبشي، مكتبة دار الكتب، 1973.
29. أبو الفداء عماد الدين إسماعيل محمد بن عمر (ت732هـ/1331م)، تقويم البلدان، دار صادر، بيروت، 1840.
30. ابن الفرات ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت807هـ/1404م)، تاريخ الدول والملوك، مج9، ج1، تح: ميخائيل خوري، مكتبة تاريخ وآثار دولة المماليك بيروت 1961.
31. ابن قاضي شهبة أبو بكر بن أحمد بن محمد الأسدي الدمشقي (ت851هـ/1158م)، تاريخ ابن قاضي شهبة، ج1، 2، 3، تح: عدنان درويش، دمشق، 1994.
32. القلقشندي شهاب الدين أحمد بن علي (ت821هـ/1418م)، صبح الأعشى، ج3، 4، 8، 13، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1340هـ/1922م.
33. - قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتب الإسلامية (دار الكتاب المصري-القاهرة، دار الكتاب اللبناني-بيروت)، ط2، 1982.
34. ابن كثير أبو الفداء إسماعيل (ت774هـ/1372م)، البداية والنهاية مبدأ الخليقة وخصص الأنبياء، ج13، تح: محي الدين ديب، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، 1436هـ.
35. المقرئ تقي الدين أحمد بن علي (ت845هـ/1441م)، إغاثة الأمة بكشف الغمة، تح: كرم حلمي فرحات، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 2007.
36. - السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، 5، 6، 7، 8، تح: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418هـ/1997م.
37. - المقفى الكبير، ج2، تح: محمد البعلوي، دار العرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 2006.
38. - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج1، 2، 3، تح: محمد زينهم ومديحة الشرفاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1998.
39. ابن مماتي أسعد بن المهذب (ت606هـ/1209م)، قوانين الدواوين، تح: عزيز سوربال عطية، مصر، 1943م.

40. ابن منظور محمد بن مكرم بن علي (ت711هـ/1311م)، لسان العرب، ج4، 11، 12، دار صادر، بيروت، د ت.

41. النعيمي عبد القادر بن محمد، الدارس في تاريخ المدارس، تح: جعفر الحسيني، مطبعة الشرقي، دمشق، 1367هـ/1948م.

42. النويري شهاب الدين (ت733هـ/1332م)، نهاية الإرب في فنون الأدب، ج8، 13، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1350هـ/1931م.
قائمة المراجع العربية:

1. إبراهيم علي طرخان، النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، دار الكتاب العربي، 1388هـ/1928م.

2. إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، دار الدعوة، د ت.

3. أحمد خالد جوده، المدارس ونظام التعليم في بلاد الشام في العصر المملوكي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1422هـ/2001م.

4. أحمد عبد الرزاق أحمد، العمارة الإسلامية في مصر منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر المملوكي، دار الفكر العربي، القاهرة، 2009.

5. أحمد يوسف الحسن، تقي الدين والهندسة الميكانيكية العربية مع كتاب الطرق السنية في الآلات الروحانية، حلب، 1976.

6. أنطوان خليل ضومط، الدولة المملوكية "التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري"، دار الحداثة، بيروت، 1980.

7. بطرس البستاني، محيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت، 2011، مج 1.

8. تاجر جاك، أقباط ومسلمون (منذ الفتح العربي إلى 1922)، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012.

9. حسام محمد الناظر، دولة المماليك في عهد السلطان الظاهر برفوق، مكتبة الجامعة الأردنية، 1998.

10. حسن ظاظا، الفكر الديني الإسرائيلي أطواره ومذاهبه، معهد البحوث والدراسات العربية، 1971.

11. زكي محمود حسين، فنون الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1948.
12. سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، دار النهضة العربية، ط2، القاهرة، 1976.
13. – بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، بيروت، 1977.
14. صبحي عبد المنعم، المغول والمماليك، مكتبة الإسكندرية، 2000.
15. طه حسن الزعاريير، الصناعات والحرف في جنوب بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي (569-923هـ/1173-1517م)، وزارة الثقافة الأردنية، 2021.
16. عادل زيتون، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دار دمشق، 1400هـ/1980م.
17. عامر نجيب موسى الناصر، الحياة الاقتصادية في مصر في العصر المملوكي، دار الشروق، الأردن، 2003.
18. عبادة كحلية، المجتمع المصري في العصرين المملوكي والعثماني، المجلس الأعلى للثقافة، 2007.
19. عبد القادر بدران، منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، دمشق، 1379هـ.
20. عبد المجيد دياب، تاريخ اليهود وآثارهم في مصر، دار الفضيلة، القاهرة، 1997.
21. عبد المنعم ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ط7، مكتبة أنجلو المصرية، القاهرة، 1997.
22. عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، القاهرة، 1989.
23. – عصر سلاطين المماليك، دار شروق، القاهرة، 1415هـ/1994م.
24. علي إبراهيم حسن، دراسات في تاريخ المماليك البحرية، مكتبة النهضة المصرية، مصر، 1944.
25. عليا عكاشة، العمارة الإسلامية في مصر، الجيزة، 2008.
26. ابن الغزي كامل بن حسين بن مصطفى بالي الحلبي، (ت1351هـ/1932م)، نهر الذهب في تاريخ حلب، ج2، المطبعة المارونية، حلب، 1923.

27. فتحي سالم حميدي اللهيبي وفائز علي بخيت الحديدي، جوانب من الحياة السياسية والاقتصادية في العصر المملوكي، الموصل، 1435هـ/2014م.
28. قاسم عبده قاسم، أسواق مصر في عصر سلاطين المماليك، مكتبة سعيد رأفت، القاهرة، 1976.
29. – النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، القاهرة، 1978.
30. – أهل الذمة في مصر من الفتح الإسلامي حتى نهاية المماليك، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 2003.
31. كمال الدين سامح، العمارة الإسلامية في مصر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1987، د. ت.
32. لطفي أحمد ناصر، وسائل الترفيه في عصر سلاطين المماليك في مصر، الهيئة المصرية، 1999.
33. مجدي عبد الرشيد بحر، القرية المصرية في عصر سلاطين المماليك (648-923هـ/1250-1517م)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1999.
34. محمد أحمد دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر، دمشق، 1410هـ/1990م.
35. محمد العقنقارة، المدارس في عصر دولة المماليك (648-923هـ/1250-1517م)، المجلس الأعلى للثقافة، 2015.
36. محمد جمال الدين سرور، الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عهده، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1938.
37. محمد جمال الدين سرور، دولة بني قلاوون في مصر، دار الفكر العربي، مصر، 1366هـ/1947م.
38. محمد حافظ النقر، تاريخ بيت المقدس في العصر المملوكي، دار البداية، الأردن، 2006.
39. محمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، دار النفائس، بيروت، 1418هـ/1997م.
40. محمد كرد علي، غوطة دمشق، مطبعة الشرقي، دمشق، 1368هـ/1949م.

41. محمود إبراهيم حسن، الخزف الإسلامي في مصر، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، مصر، 2010.
42. محمود السيد، تاريخ القبائل العربية في عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1998.
43. محمود محمد الحويري، مصر في العصور الوسطى من العصر المسيحي حتى الفتح العثماني، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، 2002.
44. مفيد الزيدي، موسوعة التاريخ الإسلامي "العصر المملوكي"، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، 2009.
45. نبيل خالد أبو علي، الادب العربي بين العصرين المملوكي والعثماني، الجامعة الإسلامية، ج1، غزة، 2007.
46. نعيم زكي فهمي، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1973.
47. نقولا زياده، دمشق في عصر المماليك، مكتبة لبنان، 1966.
48. هاني حمزة، مصر المملوكية (658هـ/1250م-923هـ/1517م)، دار العين للنشر، الإسكندرية، 2012.
49. يعقوب نخلة رفيلا، تاريخ الأمة القبطية، مطبعة متروبول، ط2، 2000.

قائمة المراجع المعربة:

1. أشتور، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، تر: عبد الهادي عبله، مراجعة: أحمد عسان، دار قتيبية، دمشق، 1985م.
2. جاسون فيبيت، القاهرة مدينة الفن والتجارة، تر: مصطفى العبادي، مؤسسة فرنكلنت للطباعة والنشر، بيروت، نيويورك، 1998م.
3. رينهارت دوزي، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، الدار العربية للموضوعات، 2011.
4. - تكملة المعاجم العربية، ج4، تر: محمد النعيمي، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، 1981.

5. قالتر هنتش، المكايل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، تر: كامل العسلي،
روائع مجدلاوي، الأردن، 2001.
6. لايدوس آير، مدن إسلامية في عهد المماليك، تر: علي ماضي، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت،
1987.
7. م.س ديمانند، الفنون الإسلامية، تر: أحمد محمد عيسى، دار المعارف، مصر، 1982.
8. ماير، الملابس المملوكية، تر: صالح الشيني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
9. وليم موير، تاريخ دولة المماليك في مصر، تر: محمود عابدين وسليم حسن، مكتبة مدبولي،
القاهرة، 1415هـ/1995م.
10. يوسف جاغلاز وصالح كولن، المحمل الشريف ورحلته إلى الحرمين الشريفين، تر: حازم
سعيد منتصر وأحمد كمال، دار النيل، القاهرة، 2015.

الرسائل العلمية:

1. إبراهيم زعرور، الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي، رسالة لنيل
درجه الدكتوراه، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق، 1411هـ/1990م.
2. أسماء علي فهد القيسي، الإسكندرية في عصر سلاطين المماليك دراسة في أحوالها العامة،
أطروحة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الإسلامي، قسم التاريخ، جامعة بغداد، 2015.
3. إيلاف عاصم مصطفى القيس، التجارة الكارمية في عصر المماليك بمصر 1260-1516هـ،
رسالة لنيل الدكتوراه، جامعة بغداد، 2006.
4. تسنيم زريق جمعة أبو شلوف، الأوضاع الاجتماعية في فلسطين في العهد المملوكي (648-
923هـ/1250-1517م)، رسالة مقدمة لنيل الماجستير، قسم التاريخ والآثار، كلية الآداب،
جامعة غزة، 2009.
5. رشا فاضل كاظم الكعبي، الحياة الاجتماعية بمصر في عصر المماليك، رسالة لنيل الماجستير،
قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة الكوفة، 2014.

6. سميرة عبد اللطيف علي نياب، صور المجتمع الشامي في الدولة المملوكية الأولى (648-783هـ/1250-1381م)، رسالة لنيل درجة الماجستير، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة مؤتة، 2007.
7. فريال بدوي يوسف الزربا، الحياة الاجتماعية في دمشق في العهد المملوكي، رسالة لنيل الماجستير، قسم التاريخ، كلية الأدب، جامعة الأردن، 1400هـ/1980م.
8. مبارك محمد سالم الطراونة، الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في عصر المماليك الجراكسة (784-922هـ/1382-1516م)، أطروحة لنيل الدكتوراه، قسم الفلسفة، 2003.
9. محمد ربحان، الإدارة المالية في عصر دولة المماليك، رسالة لنيل الماجستير في تاريخ العرب والإسلام، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، دمشق، 2016/2017.
10. مصطفى غازي بدور، التاريخ الاقتصادي للدولة المملوكية (648-923هـ/1250-1517م)، مذكرة لنيل شهادة الدكتوراه، قسم الاقتصاد والمصارف الإسلامية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة اليرموك، الأردن، 2015/2016.
11. منال أحمد إبراهيم أوريتون، المجاعات في مصر وبلاد الشام في العصر المملوكي، رسالة مقدمة لنيل الماجستير، جامعة اليرموك، 1998.
12. نافذ محمد عبد ربه الشوامرة، الكوارث الطبيعية في بلاد الشام في العصر المملوكي (648-922هـ/1250-1517م)، رسالة مقدمة لنيل الماجستير، كلية الدراسات، جامعة الخليل، 2012.
13. نهى مكاحلة، الزراعة في بلاد الشام في العصر المملوكي، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، قسم التاريخ، كلية الأدب، جامعة اليرموك، الأردن، 1992.

الدوريات

1. إبراهيم حسن صادق ربايعه، نهاية دولة المماليك، دراسة تحليلية منطقة طولكرم التعليمية، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، فلسطين، العدد 14، 2008.
2. تسنيم كوبري وعدنان ملحم، الزراعة في نيابة حلب في العصر المملوكي، (648-922هـ/1250-1516م)، مجلة جامعة النجاح للأبحاث، قسم العلوم الإنسانية، نابلس، المجلد 37، سنة 2023.

3. حميدان محمود ناجي، الكوارث الطبيعية وآثارها في بيت المقدس في العهد المملوكي (648-923هـ/1250-1516م)، المجلة العربية للعلوم ونشر الأبحاث، المجلد 07، العدد 02، سنة 2023.
4. زينب أحمد علي أبو علي، الآثار الاقتصادية والاجتماعية للكوارث الطبيعية في مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة (784-923هـ/1382-1517م)، قسم التاريخ، كلية الدراسات الإنسانية، الأزهر، مصر، العدد 22، سنة 2018.
5. صبحي لبيب، التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى، المجلة التاريخية المصرية للدراسات التاريخية، المجلد 04، العدد 4، سنة 1952.
6. فوزي خالد الطواهي، الكوارث الطبيعية وآثارها على الحياة الزراعية في بلاد الشام في العصر المملوكي الثاني (784-922هـ/1382-1517م)، دراسات العلوم الانسانية والاجتماعية، المجلد 41، العدد 01، سنة 2014.
7. معن عكي المقابلة، المدارس في بلاد الشام في العصر المملوكي (648-923هـ)، مجلة الجامعة الإسلامية، العدد 146.
8. نهال محمود تفوري، الأزياء المملوكية من خلال المصادر التاريخية، مجلة مهد الحضارات، العدد 17، جامعة دمشق، 2013.

المحتويات

شكروعرفان.....	10-9
إهداء.....	12
المقدمة..... أو	13-12
المدخل.....	16-13
الفصل الأول: النشاط الاقتصادي المملوك.....	18-16
المبحث الأول: الزراعة.....	19
1. الأراضي الزراعية.....	22-20
2. نظام الري.....	23-22
3. الإنتاج الزراعي والحيواني.....	24-23
المبحث الثاني: الحرف والصنائع.....	25-24
1. صناعة المنسوجات.....	26
2. صناعة الخزف والفخار.....	28-26
3. صناعة السكر.....	28
4. الحفرعلى الخشب.....	29
5. صناعة الزجاج.....	30-29
6. الصناعة المعدنية.....	31
7. صناعة استخراج الزيوت.....	33-31
8. صناعة السفن.....	36-34
9. صناعات أخرى.....	
المبحث الثالث: حركة التجارة.....	
1. التجارة الداخلية.....	
2. التجارة الخارجية.....	
الفصل الثاني: الحياة الاجتماعية في العصر المملوكي.....	
المبحث الأول: مكونات المجتمع المملوكي.....	38

38.....	1) فئة السكان
39-38.....	أ. العرب.....
40-39.....	ب. الأكراد.....
41.....	ج. الأتراك.....
41.....	د. أهل الذمة.....
42.....	هـ. المغول.....
42.....	و. الأقليات والجماعات الأجنبية
43.....	2) طبقات المجتمع
44-43.....	أ. الفئة الخاصة
44.....	ب. الفئة المتوسطة
45.....	ج. الفئة العامة
47.....	المبحث الثاني: الأعياد والاحتفالات العامة
53-47.....	1. الأعياد الدينية في مصر وبلاد الشام
56-53.....	2. الأعياد القومية في مصر وبلاد الشام
57.....	المبحث الثالث: الألبسة والأطعمة المملوكية
57.....	1) الألبسة
59-57.....	أ. ملابس السلطان وخاصته والمماليك
60-59.....	ب. ملابس أرباب الوظائف من غير المماليك
61-60.....	ج. لباس العامة
65-62.....	2) الأطعمة والأشربة.....
66.....	المبحث الرابع: المرافق الاجتماعية
67-66.....	1. الجوامع والمساجد
71-68.....	2. الخوانق والربط والزوايا
74-71.....	3. المدارس
75-74.....	4. البيمارسانات
76-75.....	5. الحمامات
	الفصل الثالث:.....الازمات في الدولة المملوكية وتأثيرها على الوضع الاقتصادي والاجتماعي

78.....	المبحث الأول: أهم الأزمات في الدولة المملوكية
78.....	(1) الأزمات الطبيعية
81-78	أ. الكوارث الطبيعية
82-81	ب. الآفات الزراعية
83-82	ج. الطواعين
86-84.....	(2) الفساد المالي والإداري والسياسي
87.....	المبحث الثاني: آثار وانعكاسات الأزمات على الدولة المملوكية
90-87.....	(1) الآثار الاقتصادية
95-91.....	(2) الآثار الاجتماعية
100-96	المبحث الثالث: موقف الدولة من الازمات الاقتصادية والاجتماعية
103-102.....	الخاتمة
107-105.....	الملاحق
118-109	قائمة المصادر والمراجع
121-119.....	فهرس المحتويات

الملخص:

تناول موضوع دراستنا الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في الدولة المملوكية خلال الفترة ما بين القرنين 7-9هـ/13-15م، فقد هدفت الدراسة إلى بيان ملامح الأنشطة الاقتصادية بدء بالنشاط الزراعي الذي غلب عليه الطابع الاقطاعي بما في ذلك سبل تطوير وسائل الري وتوزيعها لضمان وفرة المحاصيل الزراعية وتنوعها، ثم تطرقت الدراسة إلى حرف وصنائع هذا العصر التي تميزت بالازدهار والتنوع إضافة إلى الحركة التجارية سواء الداخلية أو الخارجية.

كذلك تناولت هذه الدراسة في طياتها البنية السكانية للمجتمع المملوكي وأظهر هذا الجانب تنوع العناصر السكانية التي عاشت جنباً إلى جنب، إضافة إلى دراسة بعض المظاهر الاجتماعية من خلال الاحتفالات الوطنية والدينية ومن خلال الملابس التي يرتديها مختلف شرائح المجتمع وكذا الأطعمة والأشربة التي يتناولها الأفراد في مناسباتهم المختلفة، إضافة إلى اهتمام المجتمع المملوكي بتشيد المنشآت العمرانية من مساجد، بيمارستانات وحمامات وغيرها.

إلى جانب هذا وصفت الدراسة معظم الأزمات الاقتصادية والطبيعية السياسية أو الإدارية وما نتج عنها من تردي في الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في مصر وبلاد الشام في ذلك العصر، كما أنها أشارت إلى الدور الإيجابي الذي لعبته الدولة المملوكية في مواجهة هاته الإنعكاسات للتخفيف بعض الشيء من تأثيرها السلبي على الرعية.

في الأخير خلصت هذه الدراسة إلى جملة من النتائج مفادها أن التطور الاقتصادي الحاصل في الدولة المملوكية كان امتداداً للتطور الاقتصادي الأيوبي، كم أن المظاهر الاجتماعية المملوكية كانت خير شاهد على ما وصلت إليه مصر من ازدهار ورقي تمتع به المجتمع آنذاك، لكن هذا التطور والرقي تعثر في بعض الفترات بفعل الأزمات الاقتصادية.

Summary:

The current research was primarily investigated the economic and social circumstances of the Mamluk state during the period from seven to nine centuries AH/ thirteen to fifteen centuries AD. This study aimed at exploring the economic activities starting from the agricultural activity, which was dominated by the feudal system including how to improve and expand irrigation techniques to assure the variety and plenty of agricultural crops. Moreover, the study also covered the arts and crafts of this period, which were notable for their prosperity and diversity. In addition to both external and internal commercial endeavor.

Furthermore, this research shed light on Mamluk society's demographic structure which revealed diversity despite their coexistence. In addition to understanding some societal issues through national and religious celebrations as well as various social groups besides to what they used to consume in their occasions.

Additionally, the Mamluk society made contributions to the development of public buildings and urban facilities like mosques and baths.

From the one side, this investigation discussed the majority of the economic, environmental and political or governmental crises that occurred in Egypt and Levant during that period of time and how they affected the economic and social states. From the other side, the current research tackled the Mamluk state's constructive involvement in dealing with these difficulties, which helped to minimize their detrimental effect on the parish.

To conclude, the findings showed that economic development during the Mamluk state was simply an extension of Ayyubid economic expansion. The Mamluk social aspects also served as the best evidence of the affluence and sophistication of the era at that time. However, the economic difficulties or crises temporarily hampered its progress and sophistication.